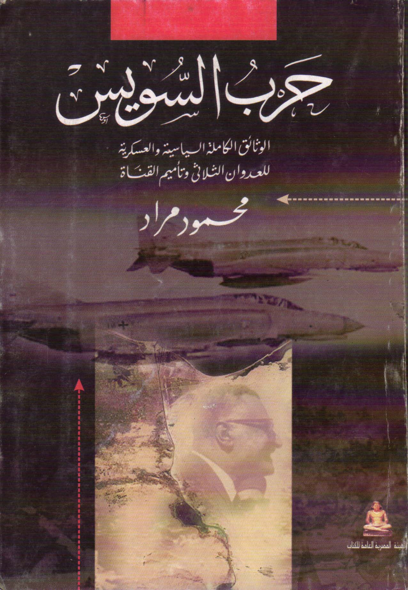

حرب السويس
الوثائق الكاملة السياسية والعسكرية
للعدوان الثلاثي وتأميم القناة
محمود مراد
الهيئة المصرية العامة للكتاب

محمود مراد



الوثائق الكاملة السياسية والعسكرية للعدوان الثلاثي وتأميم القناة



الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠٠٦

مراد ، محمود
حرب السويس / محمود مراد . ـ القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٦.
٢٠٤ ص ؛ ٢٤ سم.
تدمك ٦ ٤٨٩ ٤١٩ ٩٧٧
١ ـ الاعتداء الثلاثي على مصر (١٩٥٦)
(أ) العنوان

رقم الإيداع بدار الكتب ٢٢٢٩٨ / ٢٠٠٦
I.S.B.N 977 - 419 - 489 - 6

ديوى ٩٦٢,٠٦٣

الإخراج الفنى:
فاتن رضا

حــرب الســويــس
فاصل بين عصرين

الوثائق الكاملة السياسية والعسكرية للعدوان الثلاثى
وتأميم قناة السويس ١٩٥٦

هذا المقال ليس ضمن الكتاب.. ولكنه كان رسالة نشرتها جريدة العربى الناصرية المصرية يوم الأحد ٩١ نوفمبر ٦٠٠٢م تعقيبًا على نشر حلقات من هذا الكتاب فى جريدة الأهرام فى تلك الفترة تحت عنوان "وثائق تنشر لأول مرة" فى حين أنها قد نشرت من قبل فى كتاب هيكل المشار إليه فى الرسالة. لذلك آثرت إضافة هذا المقال هنا فى إحدى الصفحات الفارغة للكتاب كنوع من الإضافة والتنويه فى نفس الوقت.

يا «أهرام».. ليست لأول مرة!

إعادة إنتاج وثائق «هيكل» عن حرب السويس

العربى — الأحد ١٩ نوفمبر ٢٠٠٦ — ٢٧ شوال ١٤٢٧

سوف يظل الأستاذ الكبير محمد حسنين هيكل الصحفى الأول فى العالم العربى واحد المعدودين على مستوى العالم فهو يمثل - عن جدارة واستحقاق - ظاهرة صحفية نادرة سواء فى كتاباته الموثقة وفى أسلوب أدبى مبدع.. أو فى أحاديثه التليفزيونية الشيقة فى قناة «الجزيرة» العربية.

ومبعث حديثى هذا أن جريدة «الأهرام» العريقة واعتبارا من العدد الصادر الثلاثاء ٢٤ اكتوبر وما بعده نشرت ما ذكرت أنها «وثائق تنشر لأول مرة» عن حرب السويس ١٩٥٦، وذلك بمناسبة مرور ٥٠ عاما على العدوان الثلاثى على مصر استنهاضا للهم واستخلاصا للدروس والعبر من هذه الحقبة التاريخية لمصرنا العزيزة.

ولقد تابعت - كقارئ - نشر هذه الوثائق وبدهشة بالغة بعثها أن هذه الوثائق - والتى قيل إنها تنشر لأول مرة - وما يفوقها بكثير قد سبق لأستاذ الكبير هيكل أن نشرها فى كتابه القيم «ملفات السويس» والصادر من مركز الأهرام للترجمة والنشر عام ١٩٨٦ (أى منذ ٢٠ عاما).

(الملحق الوثائقى الكتاب - ٢٤٦ وثيقة - من ص٦١١ حتى ص٩٢٧) أى فى ٣١٦ صفحة من الكتاب. فكيف يتسنى القول إنها «تنشر لأول مرة» فعلى الأقل - وبالدقة - أنها لم تأت بجديد فيما سبق نشره.

هيكل

أستاذنا الكبير هيكل دعواتى لكم بطول العمر.

جريدتنا العريقة «الأهرام». رجاء من قارئ محب أرجو مراجعة الذات فى أمور عديدة لا داعى لذكرها.

لواء/ غريب الشلقانى
خبير أمنى متخصص

• ملحمة السويس..

فى الوطن والأمة

أشعر برهبة شديدة عندما أتحدث أو .. أكتب عن الوطن والأمة. أقول لنفسى قبل غيرى: اخلع نعليك وتوضأ لتتطهر فأنت تتحدث عن بلاد حماها الله سبحانه وتعالى وذكرها فى القرآن الحكيم والكتب المقدسة. ومنها خرجت الرسالات السماوية وانطلقت حضارات ومعارف أسست لتقدم المجتمع الإنسانى كله على مدى الكون.. ومن حق هذه البلاد أن تفخر بتاريخها وماضيها وأن تستند إلى هذا مرفوعة الرأس عزيزة النفس. فهذه البلاد لم تكن ظلاماً ولكن نوراً.. وعلينا فقط أن نتواصل مع ما كان فلا نهجوه ولا نظلمه.. وإذا كان لابد من إبراز السلبيات لتشريحها فإنه من المحتم تعظيم الإيجابيات وإعلائها..

ولا أريد أن أتحدث طويلا عن الحضارة البابلية فى بلاد الرافدين و«حمورابى» أبو القوانين.. ولا عن دمشق أقدم مدن العالم.. أو .. أريحا الفلسطينية وجذورها الضاربة فى أعماق الزمن.. ولا عن ممالك سنار والفور فى السودان أو.. الآشورية فى سوريا أو.. تاريخ المغرب العربى أو.. الفينيقية فى لبنان نسبة إلى فينيق خال – شقيق والدة – الفرعون العظيم

إخناتون الذى تولى عرش مصر وتوصل إلى فكرة الوحدانية، ووجود الإله القوة العظمى غير المرئية الكائنة هنـاك فى السـماء وراء قرص الشـمس - وكان هذا نتاج حضارة مصرية عظيمة بحيث يمكن القول - وأنا أكرر هذا دائمًا - أنها حضارة فكر وبشر وليست فقط حضارة نقوش وحجر.. ومن دلائلها الكثير والكثير مما نشاهده ونقرؤه فى الآثار والجداريات - التى هى صفحات تاريخ - ويكفى القول - كما ذكرنا التوصل إلى الإله الواحد الأحد.. وأن هناك حياة أخرى بعد الموت يبعث فيها الإنسان لمحاسبته عما فعله فى الحياة الدنيا.. ويكفى الإشارة إلى التقدم فى العلوم وتطبيقاتها التكنولوجية ومنها ليس فقط روعة وجمال ودقة التشييد والمعمار والهندسة.. إنما - كذلك - المبانى التى لا تنهار.. والألوان التى استمرت فى بهائها آلاف السنين.. و«التحنيط» الذى احتار فيه العلم مع كل تقدمه حتى الآن. وأيضًا حساب الزمن الذى توصل إليه المصريون. فإنه قبل هذا كانت الحسابات بدائية غير منضبطة ولكنهم رصدوا وحسبوا فحددوا إنه توجد «سنة» كاملة وقسموها إلى أشهر ثم.. الشهر إلى أسابيع.. والأسبوع إلى أيام.. واليوم إلى ساعات.. والساعة إلى دقائق وثوان!

أليس هذا.. بارعاً.. ومذهلا فى ذلك الوقت!

ويكفى - ونحن نقفز بسرعة - أن المصريين احتضنوا الأنبياء وكانوا خير معين لهم.. بدءاً من إبراهيم عليه السلام الذى احتفى به القوم عندما زار سيناء فتزوج من بناتها لتصبح السيدة هاجر عليها السلام هى أم العرب وصاحبة الهرولة الشهيرة - التى صارت من مناسك الحج - بين الصفا والمروة، وسبب تفجر أحلى وأعذب مياه تتدفق بلا انقطاع من بئر زمزم ليرتوى منه وليدها إسماعيل - عليه السلام - النبى الكريم أبو العرب..

وبالتالى صارت العلاقة بينهم وبين المصريين نسبًا ومصاهرة ورابطة دم..

ومن سيدنا إبراهيم إلى أنبياء ورسل غيره.. منهم يوسف الذى ألقاه أشقاؤه فى البئر للتخلص منه فجاءت قافلة تجار مصريون ينقذونه ويصحبونه معهم إلى مصر ليشب وينمو ويترعرع حتى كان بعثه رسولا.. ومثله موسى الذى كانت المؤامرة معدة لقتله رضيعًا فهربت به أمه.. ولم تجد واحة سوى مصر ولم تجد حضناً دافئاً سوى صفحة نهر النيل فوضعت ابنها على محفة أو سدتها المياه لتحمله إلى قصر الفرعون فكان التبنى والتربية حتى غدا شاباً.. وبعث يبشر بدين جديد.. ومن بعده كانت ملحمة السيد المسيح عيسى بن مريم عليهما السلام - الذى يعد تاريخياً أول لاجئ فلسطينى - الذى عرفت أمه بمؤامرة اليهود مع الحاكم الرومانى لذبحه.. فكانت رحلة الهروب للأم مع شقيقها زكريا حاملة رضيعها.. إلى مصر الآمنة..

وهكذا.. وهكذا.. مما يكشف عن أساسيات ومكونات الشخصية المصرية وملامحها.. وعن دور مصر وعلاقاتها بالجيران - الذين يشكلون الآن الأمة العربية - وهو دور تجاوز حدود القربى وتوفير الملاذ الآمن وتيسير متطلبات الحياة - بما فيها من زرع وضرع وخير - ونشر الحضارة.. فكراً وعلماً وثقافة وفنوناً.. إلى الحماية ليس فقط لمن يلوذ بها.. ولكن أيضاً لتمتد خارج الحدود..

وهنا ندخل مباشرة إلى العسكرية.. وإلى الفكر الاستراتيجى المصرى المتقدم الذى أدرك أن الأمن الوطنى لا ينحصر بحدود الوطن وإنما هو أمن قومى يمتد شرقًا وغرباً وجنوباً وشمالا.. وكان الاعتماد فى ذلك على «العقيدة» وعلى «المصرى» المواطن الأصيل الذى طوع النيل بفيضاناته

المدمرة ليكون سلس القيادة، ولهذا فإنه إذا كان المؤرخ اليونانى الشهير هيرودوت قد قال قولته التى ذاعت أن «مصر.. هبة النيل» فإننا نقول إن «مصر.. هبة المصريين والنيل» فالنهر وحده لا ينشئ حضارة وتقدماً.. والأمثلة كثيرة للمقارنة!

وتطبيقاً لنظرية الأمن القومى وشمولية الدور المصرى نشير إلى تاريخ موثق لا يحتاج إلى برهان وإن كان يتطلب التذكر والتذكير. مثل غزوة الهكسوس الشهيرة حيث جاء جيشهم القوى من أواسط آسيا ليجتاح ويكتسح كل البلاد بدءاً من بلاد الرافدين – العراق – إلى الشام حتى وصل مصر.. فكانت الهبة الكبرى واحتشدت الدولة بقيادة الملك الفرعون كاموس وخلفه ابنه الشهير أحمس بمساندة أمه «بتاح» ولم يتوقف الجيش المصرى – المدعوم شعبياً – بطرد الهكسوس إلى خارج الحدود لكنه – وهذا مهم جداً – طاردهم إلى خارج المنطقة كلها بعد تحرير الشام وبلاد الرافدين وسلم بلادها إلى حكامها الشرعيين وعاد إلى مصر منصوراً..

وتعدد هذا الدور للعسكرية المصرية لحماية كل المنطقة.. بل إنه لاستجلاء حدود الأمن القومى – وفى نفس الوقت للتواصل مع الغير واستكشاف الدنيا – أرسلت الملكة العظيمة حتشبسوت أربع قوافل بحرية مهمة:

● **الأولـــى**: اتجهت جنوباً.. إلى بلاد بونت – الآن إثيوبيا وأريتريا والصومال – والهضبة الاستوائية لمعرفة منابع نهر النيل وعقد الصلات مع أبناء دول حوض النهر.. ولعلنا هنا نقول إن حدود مصر الجنوبية كانت تمتد إلى نقطة شمال الخرطوم حالياً بنحو ثلاثين كيلومتراً.. وهذا يبرر وجود عدد من الآثار الفرعونية شمال السودان..

● **الثانية:** اتجهت شمالا إلى الجزر الموجودة فى البحر المتوسط - وتوجد بقايا آثار فرعونية فى مالطة وقبرص وغيرها - كما اتجهت إلى جنوب أوروبا التى كانت فى ذلك الوقت دويلات ومقاطعات صغيرة.. ولذلك جاء عدد من علمائها وفلاسفتها إلى مصر للتعلم..

● **الثالثة:** اتجهت شرقاً عبر البحر الأحمر.. حيث وصلت إلى الصين وشبه الجزيرة الهندية.. مروراً بشبه الجزيرة العربية وجنوبها.. وبغرب إفريقيا.

● **الرابعة:** اتجهت غرباً لتمر بشمال إفريقيا - المغرب العربى - من ناحية وبإسبانيا من الناحية الأخرى - ثم شقت طريقها إلى ما يسمى الآن بأمريكا اللاتينية والجنوبية - وهذا أيضًا يبرر وجود آثار مصرية فى دولة مثل المكسيك.

وبديهى أن هذه الرحلات الأربع كانت لها أهداف متعددة منها أبعاد الأمن القومى.. ومنها اكتشاف الدنيا التى تقع مصر فى قلبها فحملت لقب «أم الدنيا».. ومنها إجراء دراسات علمية متنوعة.

وإذا واصلنا الإطلالة على التاريخ - من المنظور العسكرى - نجد أن الدور المصرى تحمل مسئوليته بشرف وشجاعة.. ومن ذلك إضافة لما ذكرنا التصدى لغزو التتار الهمجى البربرى الذى بدأ دخول المنطقة من البوابة الشرقية وأعنى بها بلاد الرافدين - العراق - وقالت كتب التاريخ ومنها «البداية والنهاية» لابن كثير أنه راح ضحية الغزو مليون ونصف مليون شخص تناثرت جثثهم فى الطرقات وامتلأ بها مجرى كل من نهرى: دجلة والفرات.. مما أحدث فى البلاد أمراضًا وأوبئة فانتشر الطاعون وغيره..

واستمر الاجتياح التتارى عبر بلاد الشام كلها مسيطراً عليها حتى وصل إلى مصر – الهدف الثمين – فكانت صيحة «وا إسلاماه» وكان الأداء الرائع للجيش المكون معظمه من المصريين فدحر التتار.. ومرة أخرى – وانطلاقاً من المسئولية المصرية وإدراكها لحقائق الأمن القومى.. استمر الجيش المصرى يطارد جيوش التتار ويحرر كل بلاد المنطقة المحتلة ويسلمها إلى أهلها.. حتى حرر بلاد الرافدين وما بعدها.. فلم تعد للتتار بعد ذلك قائمة. وأكثر من هذا قامت مصر بمساعدة هذه البلاد على إعادة تنظيم نفسها وإعمارها..

ولا يفوتنا أن نشير إلى مواجهات سابقة مثل المعارك مع الحيثيين بقيادة الفرعون رمسيس الثانى.. وإلى معارك لاحقة ومنها معارك الصليبيين.. وإلى غيرها وغيرها.. سواء مما كانت مصر تتولى فيها القيادة أو.. تسهم بدور كبير.. حتى كان التاريخ الحديث والمعاصر.. وكانت الغزوة الصهيونية التى لا نزال نواجهها ونتعامل معها بدءاً من حرب ١٩٤٨ – النكبة – إلى حرب ١٩٥٦ – العدوان الثلاثى البريطانى الفرنسى الإسرائيلى، الذى يجيء اليوبيل الذهبى لذكراه عام ٢٠٠٦ ميلادية بمناسبة مرور خمسين سنة على وقوعه.

إن القيمة الأساسية لهذه الغزوة – أو.. لهذا العدوان – أو – كما أصبح معروفًا باسم – حرب السويس.. إنها لم تكن مجرد حرب تحمل رقم اثنين فى مسلسل الصراع العربى الإسرائيلى – الذى لا يعلم أحد متى ينتهى – ولا. فى أنها تحالف علنى سافر بين دولتين – كانتا من أكبر دول العالم هما بريطانيا الإمبراطورية التى لا تغرب عنها الشمس.. وفرنسا الإمبراطورية التى تمتد مستعمراتها عبر القارات، وبين دولة صغيرة

مشكوك فى شرعية وجودها هى إسرائيل التى قال أبرز قادتها العسكريين «موشيه ديان» أن اشتراكها كان أشبه براكب دراجة تعلق بسيارة كبيرة تصعد سفح الجبل فانطلق بسرعة لكنه فقد توازنه.. ذلك أن القيمة الأساسية لحرب السويس هى.. فى أنها كانت حداً فاصلا بين عصرين.. بين عصر السيطرة الاستعمارية الاستعبادية المستغلة المستترفة بلا حدود.. وبين عصر الاستقلال والتحرر السياسى والعسكرى والاقتصادى والثقافى..

وكانت بداية النتائج قطع ذيل الأسد البريطانى وكسر أنيابه فبدأ يلملم بقاياه من مستعمراته ويرحل.. وهزيمة القوى اليمينية الفرنسية فاشتدت عزائم الثوار فى المستعمرات – مثل الجزائر وتونس ودول إفريقية وغيرها – حتى تحقق الاستقلال.. بل إن ما حدث فى حرب السويس كانت له تأثيراته الإيجابية فى أقصى الجنوب الإفريقى وفى أقصى القارة الأمريكية الجنوبية وفى آسيا..

ولهذه القيمة الكبرى، بالغة الأهمية، حفرت حرب السويس مكانتها فى التاريخ السياسى والإنسانى للعالم.. وأكد المصريون قدرهم وقدرتهم.. ومن ثم يحتفى بها العالم بشرقه وغربه..

وإذا كان العالم يهتم بها – ولا تزال المطابع ودور الصحف ومراكز الدراسات والأبحاث تنشر عنها حتى اللحظة دراسات وكتب عن خفاياها ونتائجها وما ترتب عليها، فإنه من الأجدر أن تكون هذه مهمتنا نحن – ولا أعنى المصريين فقط بل كل العرب – لأسباب عديدة.. أذكر فقط ثلاثة منها:

١ – إننا نحن الذين تصدينا لهذه الحرب وخضناها ببسالة وخرجنا منها بنتائج مشرفة واحتذى بنا الآخرون من الأشقاء.

٢ – إننا – نحن فى مصر والدول العربية – أول من انعكست عليه هذه النتائج.

٣ – إنه إذا كان هدف التذكر والدراسة هو التحليل الاستراتيجى للحرب من الجوانب والأبعاد السياسية والعسكرية وغيرها. فإننا نحن أول من يهمه – هكذا المفروض – هذا التحليل ونتائجه.. ولكنا للأسف الشديد لا نبالى بهذا، ونبدو أحياناً وقد قطعنا الصلة بالماضى وبما أنجزناه فنبدأ من فراغ كما لو كانت الدنيا تولد «اليوم» فلا نستفيد بما فعلنا – فى حين يستفيد الآخرون – ولا نبنى فوق ما بنينا فنرتفع.. بينما الآخرون يفعلون.. فى حين أنه إذا كنا نتنبه ونتحسب ونعى الدرس لما كان قد حدث ما حدث على الساحة العربية التى تبدو – من دون ساحات العالم ومناطقه – مهانة مجروحة مباحة لكل من يريد أن يغزوها بالسلاح.. أو.. يتهجم عليها بالإساءات والبذاءات.. أو.. يشوه تاريخها وزعماءها.. ويشككها فى نفسها!

لهذا.. تجىء هذه المحاولة – بالوثائق الكاملة للملحمة من تأميم قناة السويس إلى العدوان الثلاثى – إضافة لما قيل عن حرب السويس واستثارة للمبادئ والمعانى والقيم.. وللتعرف على النموذج ليس لتكراره، فالحدث مثل الإنسان.. بصمة غير قابلة للتكرار.. وإنما تصلح لأن نستفيد منها.. باستخلاص الثوابت وهى أشبه بأوعية وقوالب.. تصلح لكل زمان وإن كان محتواها يتغير جزئياً أو.. كلياً حسب المتغيرات وإيقاع العصر.. ومزاجه الحاكم.

القاهرة – أكتوبر ٢٠٠٦

محمود مراد

• وثائق تأميم قناة السويس

كـان تأمـيم قناة السـويس فى السـادس والعشـرين من يوليـو ١٩٥٦ هو السبب المباشر للعدوان الثلاثى الأنجلو فرنسى إسرائيلى. ونظراً للأهمية الكبرى لهذا القرار ولعملية التأميم وما صاحبها وما نتج عنها من تداعيات، فإننا نفرد لها باباً مستقلا يتضمن:

١ – نص الخطاب الذى ألقاه جمال عبد الناصر فى المؤتمر الشعبى الذى انعقد فى ميدان المنشية بالإسكندرية يوم ٢٦ يوليو ١٩٥٦ الذى تضمن إعلان قرار التأميم. وذلك باعتبار أن الخطاب شرح الموقف السياسى الذى كان يسود مصر والمنطقة وقتها ويكشف العلاقات المصرية – العربية والعربية – الدولية، وبشكل خاص الممارسات الأمريكية والبريطانية والفرنسية.. وكذلك أفعال إسرائيل والدور الإرهابى القذر الذى كانت – ولا تزال – تقوم به. وبدراسة الخطاب يمكن الإجابة على تساؤل: لماذا كان التحالف الثلاثى؟

٢ – قرار التأميم الذى أعلنه جمال عبدالناصر فى ٢٦ يوليو ١٩٥٦، أى بعد ٣٧ يوماً من رحيل آخر جندى بريطانى من قوة الاحتلال التى كانت

فى مصر – وتحديداً فى منطقة القناة – وذلك نتيجة لاتفاقية الجلاء الموقعة عـام ١٩٥٤ .. وكـان إعـلان هذا القـرار قـبل ٩٥ يومـًا من بدء العـدوان الثلاثى..

٣ – ندوة يتحـدث فيها المهندس محـمد عزت عادل رئيس هيئة قناة السويس السابق، وكان أحد ثلاثة رجال عرفوا بقرار التأميم قبل صدوره وشارك فى تنفيذه، ويكشف خلال الحوار عن أسرار جديدة تماماً.

٤ – وثيـقة عن الدكتـور مصطفى حـفناوى الذى كـان أستـاذاً للقـانون واختاره عبد الناصر لصياغة وثائق قرار التأميم وتوابعه.. ولعل المفاجأة فى هذه الوثيـقة إن جد الدكتـور مصطفى كـان أحد العمال الذين شاركوا وحفروا بأظافرهم مجرى القناة فى القرن التاسع عشر!

٥ – تحليل عن القيمة السياسية الباقية حتى الآن والدروس المستفادة من معركة تأميم قناة السويس.

• خطاب جمال عبد الناصر

في الإسكندرية - ٢٦ يوليو ١٩٥٦

«أيها المواطنون: نحتفل اليوم باستقبال العيد الخامس للثورة، باستقبال السنة الخامسة للثورة، بعد أن قضينا أربع سنوات نكافح، ونجاهد، ونقاتل، للتخلص من آثار الماضى البغيض، للتخلص من آثار الاستعمار الذى استبد بنا قروناً طويلة، وللتخلص من آثار الاستبداد، الذى تحكم فينا، وللتخلص من آثار الاستغلال الأجنبى والاستغلال الداخلى.

إننا اليوم، أيها المواطنون ونحن نستقبل العام الخامس للثورة، نستقبله أشد عزماً وأمضى قوة، وأشد إيماناً، نعم، أيها المواطنون لقد اتحدنا، وثرنا وكافحنا، وقاتلنا، وجاهدنا، وانتصرنا...

واليوم، ونحن نتجه إلى المستقبل، بعد سنوات أربع من الثورة، نتجه بقوة وعزم وإيمان ونعتمد على الله، ونعتمد على أنفسنا ونعتمد على الله وعلى عزيمتنا، نعتمد على الله وعلى قوتنا، من أجل تحقيق الأهداف التى قامت من أجلها هذه الثورة.. من أجل تحقيق هذه الأهداف التى جاهد من أجلها الآباء، والتى كافح من أجلها الأجداد، نتجه إلى المستقبل، ونحن

نشعر بأننا سننتصر بعون الله، انتصارات متتالية، انتصارات متتابعة، من أجل تثبيت مبادئ العزة، ومن أجل تثبيت مبادئ الحرية، ومن أجل تثبيت مبادئ الكرامة، ومن أجل إقامة دولة مستقلة، استقلالا حقيقياً، لا استقلالا زائفاً.. استقلالا سياسياً، واستقلالا اقتصادياً.

أيها المواطنون: حينما نتجه إلى المستقبل نشعر أن معاركنا لم تنته، فليس من السهل أبداً أن نبنى أنفسنا فى وسط الأطماع الدولية المتنافرة، والاستغلال الدولى، والمؤامرات الدولية، ليس سهلا أبداً أن نبنى أنفسنا، نبنى وطننا، ونحقق استقلالنا السياسى ونحقق استقلالنا الاقتصادى.. أمامنا أيها الأخوة معارك طويلة، سنكافح فيها، أمامنا معارك طويلة، لنعيش أحراراً، لنعيش كرماء لنعيش أعزاء.

اليوم أيها الأخوة، وجدنا الفرصة، ووضعنا أساس العزة، ووضعنا أساس الحرية، ووضعنا أساس الكرامة، سنتجه أيها الإخوة دائمًا إلى المستقبل لنثبت هذه العزة، ولنثبت هذه الحرية، ولنثبت هذه الكرامة.

لقد وضعنا اليوم مبادئ من أجلنا، من أجل مصر، ووضعنا مبادئ ننادى بها فى السياسة العالمية والسياسة الدولية، من أجل حرية الإنسان، ومن أجل رفاهية الإنسان، ولا بد أن نجد الفرصة لنشر هذه المبادئ، سنتجه قدماً إلى الأمام، نؤيد الحرية، ونؤيد التحرير، نقاوم الاستعمار وأعوان الاستعمار...

أمامنا أيها الإخوة معارك طويلة مستمرة من أجل تحقيق المبادئ التى آمنا بها، والتى آمن بها كل فرد من أبناء هذ الوطن، هذه المعارك لم تنته، ولن تنتهى، ويجب أن نكون دائمًا على حذر، وعلى حيطة من ألاعيب المستعمرين وأعوان المستعمرين.

* * *

لقد حاول الاستعمار، بكل وسيلة من الوسائل أن يضعضع قوميتنا، وأن يضعف عروبتنا، وأن يفرق بيننا، فخلق إسرائيل صنيعة الاستعمار..

فى الأيام الماضية استشهد اثنان من أخلص أبناء مصر من أجلها، اثنان أنكرا ذاتهما، وكانا يكافحان، ويجاهدان، فى سبيل تحقيق غرض أسمى.. فى سبيل تحقيق غرض كبير.. فى سبيل تحقيق المبادئ والمثل العليا، من أجلكم، ومن أجل مصر، ومن أجل العرب.

كان كل منهما يؤمن بقوميته وبعروبته، وبمصريته، وكان يعتبر.. إنه يستطيع أن يقدم روحه ودمه فداء لهذا الإيمان وفداء لهذه المبادئ.

من أيام قليلة ماضية، استشهد اثنان من أعز الناس إلينا، بل من أخلص الناس لنا، استشهد مصطفى حافظ قائد جيش فلسطين، وهو يؤدى واجبه من أجلكم، ومن أجل العروبة، ومن أجل القومية العربية، مصطفى حافظ الذى آلى على نفسه أن يجرد جيش فلسطين، وأن يبعث جيش فلسطين، وأن يبعث اسم فلسطين، فهل سها عنه أعوان الاستعمار، هل سهت عنه إسرائيل صنيعة الاستعمار؟

أبداً أنهم كانوا يجدون فى مصطفى حافظ تهديداً مباشراً لهم، وتهديداً مباشراً لأطماعهم، وتهديداً مباشراً ضد المؤامرات التى كانوا يحيكونها، ضدكم، وضد قوميتكم، وضد عروبتكم، وضد العالم العربى فاغتيل مصطفى حافظ بأخس أنواع الاغتيال والخداع.

اغتيل مصطفى حافظ، ولكن هل يعتقدون أنهم بقتل مصطفى حافظ، لن يجدوا من يحل محل مصطفى حافظ؟.. إنهم سيجدون فى مصر وبين ربوع مصر، جميع المصريين، كل منهم يحمل هذه المبادئ ويؤمن بهذه المبادئ.

أما صلاح مصطفى. أخوكم. أخى الذى قام معى فى ٢٣ يوليو، قام يجاهد من أجل مصر، وهو يؤمن بالمبادئ والمثل العليا، صلاح مصطفى، قام وهو يؤمن بكم، وبحريتكم وبعزتكم، وبكرامتكم فى ٢٣ يوليو، ولكنه آثر أن يكافح، ويجاهد فى صمت وسكون، ولم يكن أحد منكم يعرف من هو صلاح مصطفى.. وماذا عمل صلاح مصطفى.. وما دور صلاح مصطفى فى ثورة ٢٣ يوليو؟

لقد آثر صلاح مصطفى أن يكافح ويجاهد، وهو يؤمن بأنه قد وهب نفسه وروحه ودمه فى سبيلكم وفى سبيل مصريتكم، وفى سبيل مبادئكم، ومثلكم، كان يؤمن بأنه قد وهب روحه، ونفسه، ودمه، فى سبيل القومية العربية، وفى سبيل الوطن العربى، فإذا اغتالوا صلاح مصطفى، وقتلوه بأبشع أساليب الغدر والخيانة. إذ اغتالوا صلاح مصطفى بهذه الوسائل التى كانوا يستعملونها قبل سنة ١٩٤٨، فأنا أشعر أن العصابات التى تحولت إلى دولة، تتحول اليوم مرة أخرى إلى عصابات، هذا يبشر بالخير أيها المواطنون، إن إسرائيل اليوم بدأت تتبع أساليب العصابات التى كانت تتبعها سنة ١٩٤٨، إن يوم النصر لقريب.

إنهم إذا كانوا يعتقدون أنهم بقتل صلاح مصطفى والتخلص من مصطفى حافظ.. لن يجدوا فى مصر أمثال صلاح و.. مصطفى، فإنهم واهمون، إذ كانوا يعتقدون إنهم بهذه الأساليب الغادرة، يستطيعون أن يبثوا الرعب فى نفوسنا، أو فى نفوس الأمة العربية، فإنهم واهمون، فكلنا نعمل من أجل هذه المبادئ العليا، والمثل، وكلنا نعمل من أجل قوميتنا، وعروبتنا، ولنحمى أنفسنا من الاستعمار، وأعوان الاستعمار وإسرائيل صنيعة الاستعمار، كلنا سنجاهد، وسنكافح، كلنا سنفدى أرضنا بأرواحنا، وبدمائنا.

* * *

هذه أيها المواطنون هى المعركة التى نسير فيها، هذه أيها المواطنون المعركة التى نخوضها الآن، معركة ضد الاستعمار. وضد أساليب الاستعمار. وضد وسائل الاستعمار.. معركة ضد إسرائيل صنيعة الاستعمار، التى خلقها الاستعمار.. ليقضى على قوميتنا كما قضى على فلسطين. قضوا على فلسطين، وساندوا إسرائيل بالعصابات، وقووا إسرائيل، لكى يقضوا علينا، ويحولونا إلى دولة من اللاجئين وشجعوا إسرائيل حتى تعلن على الملأ أن أرضها المقدسة تمتد من النيل إلى الفرات..

نحن نشعر بهذا الخطر، وسندافع عن قوميتنا، كلنا سندافع عن عروبتنا، كلنا سنعمل حتى يمتد الوطن العربى من المحيط إلى الخليج العربى..

أيها المواطنون:

إن القومية العربية تتقدم، إن القومية العربية تنتصر، إن القومية العربية تسير إلى الأمام، وهى تعرف طريقها، إن القومية العربية تشعر من هم أعداؤها، ومن هم أصدقاؤها.. إن القومية العربية تعلم إن وجودها فى اتحادها وإن قوتها فى قوميتها.

* * *

وأنا اليوم أيها المواطنون اتجه إلى إخوان لكم فى سوريا العزيزة، سوريا الشقيقة، وقد قرروا وأعلنوا أن يتحدوا معكم اتحاداً حراً، كريماً، عزيزاً سليماً، لندعم سوياً مبادئ الحرية، ومبادئ العزة، ومبادئ الكرامة ولنرسى سوياً القومية العربية، ونرسى سوياً الوحدة العربية.

إننى اليوم أقول لإخوان لكم فى سوريا، باسمكم: إننا نرحب بكم أيها الإخوة، فقد قلتم فى دستوركم إنكم جزء من الأمة، وقلنا فى دستورنا إننا

جزء من الأمة العربية. وسنسير معاً، أيها الإخوة، متحدين يداً واحدة وقلباً واحداً، ورجلا واحداً لنرسى مبادئ العزة الحقيقية، ولنقيم بين ربوع الأمة العربية استقلالا سياسيّا حقيقيّا، واستقلالا اقتصادياً حقيقياً.

أيها المواطنون.. منذ أعلنت مصر سياستها الحرة المستقلة، وبدأ العالم ينظر إلى مصر، ويعمل لها حساباً، وكانوا من قبل لا يقيمون لنا وزناً، ولا يحسبون لنا حساباً، أصبحوا اليوم يحسبون حسابنا، وبدأوا يحسبون للعرب حسابًا، وللقومية العربية حساباً، كنا فى الماضى «نتلطع» على مكاتبهم ومكاتب المندوب السامى والسفير البريطانى، واليوم بعد تحقيق حريتنا السياسية، وبعد إعلان مبادئنا وتكاتفنا، وإقامة جبهة وطنية متحدة من جميع أبناء هذا الشعب، ضد الاستعمار وضد الطغيان، وضد التحكم والسيطرة والاستغلال والتدخل الأجنبى، يعملون لنا حساباً، ويعلمون أننا الآن دولة لها قيمتها، تستطيع أن تفعل ما تريد.

اليوم، قيمة مصر فى المجال الدولى كبرت وقيمة العرب فى المجال الدولى كبرت، وعظمت. وعلى هذا الأساس أيها الإخوة تم مؤتمر بريونى.

* * *

سافرت لأجتمع بالرئيس تيتو رئيس وزراء يوغوسلافيا والرئيس نهرو رئيس وزراء الهند الاثنين اللذين أعلنا سياسة عدم الانحياز.. السياسة الحرة المستقلة.

وزرت وأنا ذاهب إلى بريونى يوغوسلافيا والتقيت بالشعب اليوغوسلافى، ووجدت ولمست صداقة الشعب اليوغوسلافى للشعب المصرى وتقدير الشعب اليوغوسلافى للشعب المصرى..

واتجهت إلى بريونى، وبدأنا نبحث الوسائل ونتبادل الرأى فى المشاكل العالمية وفى مشاكلنا.

وانتهى مؤتمر بريونى بانتصار كبير للسياسة التى تتبعها مصر، وهى سياسة عدم الانحياز، وانتصار كبير للقضايا العربية، وأعلنت فى المجالات الدولية.

لقد قرر مؤتمر بريونى اتباع مبادئ باندونج العشرة وقال فى القرار الذى أصدره أن رؤساء الحكومات الثلاث يوغوسلافيا والهند ومصر استعرضوا التطورات الدولية وأدى تشابه نظرتهم للمشاكل الدولية إلى التعاون الوثيق بينهم كما لاحظوا باغتباط أن السياسات التى تتبعها دولهم قد ساهمت إلى حد كبير فى تخفيف التوتر الدولى وفى إنماء العلاقات بين الدول على أساس المساواة.

وبعد هذا أصدر المؤتمر قراراً بأن مؤتمر باندونج، الذى عقد فى العام الماضى، قد أقر مبادئ معينة يجب اتخاذها أساساً للعلاقات الدولية ويؤكد رؤساء الدول الثلاث من جديد هذه المبادئ العشرة التى لقيت دائماً التأييد من جانبهم، وهم يدركون أن النزاع والتوتر الدولى قد أديا إلى ما يسود العالم من مخاوف فى الحاضر والمستقبل، وطالما ظلت هذه المخاوف تسيطر على العالم، فإنه لا يمكن إرساء السلام على قواعد ثابتة.

* * *

إن مبادئ باندونج العشرة التى تقررت فى العام الماضى تقول:

من الطبيعى أن يكون لجميع الأمم الحق فى أن تختار بحرية نظمها السياسية والاقتصادية وطريقة حياتها وفقًا لأغراض ومبادئ ميثاق الأمم المتحدة والتحرر من الشك والخوف وبالثقة وحسن النية المتبادلين، يجب

على الأمم أن تمارس التسامح وتعيش معًا فى سلام، يجب على الأمم أن تعيش جيراناً صالحين لتمثيل التعاون الصادق على الأسس الآتية وهى أسس مؤتمر باندونج:

١ - احترام حقوق الإنسان الأساسية وأهداف ومبادئ ميثاق الأمم المتحدة.

٢ - احترام سيادة جميع الأمم وسلامة أراضيها.

٣ - الاعتراف بالمساواة بين جميع الأجناس وبن جميع الأمم كبيرها وصغيرها.

٤ - الامتناع عن أى تدخل فى الشئون الداخلية لبلد آخر.

٥ - احترام حق كل دولة فى الدفاع عن نفسها انفرادياً أو جماعياً..

٦ - الامتناع عن استخدام التنظيمات الدفاعية الجماعية لخدمة المصالح الذاتية لأية دولة من الدول الكبرى.

٧ - امتناع أى بلد عن الضغط على غيره من البلاد.

٨ - تجنب الأعمال أو.. التهديدات العدوانية أو استخدام العنف ضد السلامة الإقليمية، أو الاستقلال السياسى لأى بلد من البلاد..

٩ - تسوية جميع المنازعات الدولية بالطرق السلمية.

١٠ - تنمية المصالح المشتركة والتعاون المتبادل واحترام العدالة والالتزامات الدولية.

هذه هى المبادئ التى أقرها مؤتمر باندونج للعلاقات بين الدول حتى لا تستخدم الدول الكبرى الدول الصغرى ألعوبة فى يدها.. تستخدمها كمخلب للقط تنفذ بها سياستها من أجل السيطرة والنفوذ.

هذه المبادئ التى أقرها مؤتمر باندونج، أعاد مؤتمر بريونى تأكيدها وأعلن تمسكه بها وأن هذه المبادئ يجب أن تكون أساس العلاقات بين الدول.

* * *

ولقد أعلنا فى مؤتمر بريونى أن توسيع نطاق الجهود للسير قدمًا لإنماء المناطق المتخلفة فى العالم يعد أحد المهام الأساسية فى تحقيق السلام الدائم والاستقرار بين الأمم.

وبعد هذا تناول مؤتمر بريونى مشكلات الشرق الأوسط، فتكلم زعيم الهند نهرو فوافق على هذا، وزعيم يوغوسلافيا وافق على هذا.. وافق الزعيمان على وجهة النظر العربية.

إن المصالح المتعارضة للدول الكبرى فى الشرق الأوسط أدت إلى ازدياد الصعوبات التى عقدت الموقف، وقال المؤتمر إنه يجب البحث فى هذه المشاكل على ضوء حقائقها، وعلى النحو الذى يضمن المصالح الاقتصادية المشروعة؛ بشرط وضع الحلول على أساس حرية الشعوب التى يعنيها الأمر. إن حرية شعوب تلك المناطق وإرادتها الخالصة ليست ضرورية للسلام فحسب، بل هى ضرورية أيضًا لضمان المصالح الاقتصادية المشروعة.

ثم أعلن مؤتمر بريونى أن الموقف يعتبر فى فلسطين – على وجه الخصوص – خطراً على السلام الدولى، ويؤيد رؤساء الحكومات – الهند ويوغوسلافيا ومصر – قرار مؤتمر باندونج فى هذا الصدد.

إن قرار مؤتمر باندونج يقول إنه: بالنظر إلى التوتر القائم فى الشرق الأوسط بسبب الموقف فى فلسطين، وخطر ذلك التوتر على السلام العالمى،

أعلن المؤتمر الآسيوى – الإفريقى تأييده لحقوق شعب فلسطين العربى، ودعا إلى تطبيق قرارات الأمم المتحدة بشأن فلسطين.

* * *

ثم تناول مؤتمر بريونى مشكلة الجزائر وهى مشكلة عربية أيضاً، وبحث رؤساء الحكومات الثلاثة الموقف فى الجزائر، ويعتبر فى رأيهم بالغ الأهمية، بل ويتطلب اهتماماً عاجلا من وجهة نظر الحقوق الطبيعية لشعب الجزائر، ولدعم السلام فى ذلك الجزء من العالم. ونظراً لإيمان رؤساء الحكومات الثلاثة بأن السيطرة الاستعمارية غير مرغوب فيها إطلاقًا، فضلا عما يترتب عليها من إضرار بالحاكمين والمحكومين معًا، فإنهم يرون من واجبهم التعبير عن عطفهم التام مع رغبة شعب الجزائر فى الحرية، وهم يدركون أنه يوجد فى الجزائر عدد كبير من الأشخاص الذين من أصل أوروبى، والذين تجب حماية مصالحهم – دول اللى بتتحجج بهم فرنسا – على أنه يجب ألا يقف هذا فى طريق الاعتراف بالحقوق المشروعة للشعب الجزائرى. وهم يؤيدون كل جهود المفاوضات التى تهدف إلى إيجاد حل عادل وسلمى، وبخاصة وقف أعمال العنف.

إذن فقد خرجنا من مؤتمر بريونى بأننا أعلنا مبادئ أساسية للعلاقات بين الدول، وأعلنا رأينا فى المشاكل العالمية؛ مشكلة ألمانيا فى أوروبا، مشكلة الصين فى آسيا، ومشكلة فلسطين والجزائر العربية اللى تهمنا احنا كأمة عربية وكشعب عربى.

وكانت وجهة نظر الرئيس «تيتو» والرئيس «نهرو» تتماشى مع وجهة النظر العربية، وبهذا استطاعت وجهة النظر العربية أن تأخذ لها حصناً آخر، وأن تفرض وجودها فى العالم.

هذا هو ما حدث فى مؤتمر بريونى..

* * *

وعندما ننظر نجد أن مصر منذ قامت الثورة كانت بتجاهد لتنقل قضاياها وقضايا العروبة إلى طريق آخر غير طريق الاستجداء. وكنا نجد أننا نستطيع أن نحقق هذا إذا حققنا استقلالنا السياسى، وإذا حققنا الاستقلال الاقتصادى. وكنا نؤمن منذ قامت الثورة عام ١٩٥٢ .. ومن قبل ما تقوم الثورة - إن الاستقلال السياسى لا يمكن أن يكتمل إلا إذا كان معه استقلال اقتصادى، وإلا إذا كان معه اقتصاد سليم أن يقف ضد مؤامرات المستعمرين، وضد مؤامرات المستغلين، وضد مؤامرات الطامعين. فى الوقت الذى كنا فيه نعمل من أجل تحقيق الاستقلال السياسى، كنا أيضاً نعمل من أجل تحقيق الاستقلال الاقتصادى. كنا نعمل من أجل إجلاء الإنجليز المحتلين عن أرض مصر، بوسائل مختلفة كلكم تعرفونها؛ بالقوة واللين، بالعنف وبالمفاوضات، وكان غرضنا من هذا أن نحقق لمصر استقلالا سياسياً حقيقياً، وألا تكون السيادة فى مصر إلا لأبناء مصر، وألا يرفرف فى سماء مصر إلا علم مصر.

كنا بنسعى إلى هذا منذ قامت الثورة، ونسعى بعزم، وكنا نؤمن بأننا نستطيع أن نحقق هذا الاستقلال السياسى.. وسنستطيع ما دمنا نقضى على أعوان الاستعمار.

وحينما تخلصنا من أعوان الاستعمار تداعى الاستعمار وتداعى الاحتلال.. انتهى الاستعمار، والاحتلال لم يستطع أن يبقى لأنه لم يجد بينكم، بين أبناء مصر.. بين هؤلاء المواطنين واحداً يتعاون معه، أو يسانده، أو يعاونه على وجوده؛ فسلم الاستعمار، وسلم الاحتلال، وجلت عن مصر فى الشهر الماضى آخر قوة من قوات الاحتلال التى دخلت أرضنا سنة ١٨٨٢ .

وكانت لما دخلت إسكندرية سنة ٨٢ انهزم الإنجليز، وضربوا فى كفر الدوار، لم يستطيعوا أن يكملوا غزوهم، أو يكملوا حملتهم فقد واجههم عرابى فى كفر الدوار وهزمهم شر هزيمة.. ولم يستطيعوا أن يتغلغلوا فى أراضينا، لم يستطيعوا مواجهتنا وجهاً لوجه.. فانسحبوا بالغدر والخديعة.. واجهونا بالخيانة، واتجهوا إلى قناة السويس، وعن طريق أعوانهم فى قناة السويس استطاعوا الدخول من هناك والوصول إلى التل الكبير، استطاعوا أن يحتلوا مصر ويقضوا على قوة مصر لم يستطيعوا أن يواجهونا وجهًا لوجه.. هزمناهم سنة ١٨٨٢، وهزمناهم سنة ١٨٠٧ عندما جاءت حملة «فريزر» إلى مصر من أجل احتلالها والسيطرة عليها، ووصلت إلى رشيد.. فخرج لها أهل رشيد المدنيون الذين استطاعوا أن يهزموا الحملة العسكرية البريطانية ويردوها على أعقابها للبحر. هذا ما حدث أيها الإخوة – سنة ١٨٠٧ وحدث أيضاً سنة ١٨٨٢.

* * *

هذه هى مصر الحقيقية.. هزمت «فريزر» سنة ١٨٠٧، وهزمت الإنجليز فى كفر الدوار سنة ١٨٨٢، ولكن الإنجليز اتبعوا معنا أساليب الغدر، وأساليب الخداع، واستطاعوا بعد هذا أن يتحكموا فينا، واستطاعوا أن يحتلونا.

كنا نتجه – أيها المواطنون – منذ قامت الثورة إلى تحقيق الاستقلال السياسى.. وإلى إعادة العزة والكرامة المسلوبة، ووفقنا – بحمد الله – واستطعنا فى يوم ١٨ يونيه سنة ١٩٥٦ أن نرفع فى سماء مصر علم مصر وحده، وأن نبقى بين ربوع مصر سيادة مصر وحدها.

وبهذا تحقق جزء كبير جداً من الأهداف التى كنا نصبو إليها، وتحقق جزء كبير جداً من الأهداف التى كنا نطالب بها.

ولكنا لن نهمل أبداً - أيها الإخوة - فى نفس الوقت.. أن نعمل من أجل الاستقلال الاقتصادى.. لم نهمل هذا أبداً من سنة ١٩٥٢ منذ قامت الثورة؛ لأننا نؤمن بأن الاستقلال السياسى لا يمكن أن يكون له وجود إلا إذا كان هناك استقلال اقتصادى، وأن الاستقلال الاقتصادى يكمل الاستقلال السياسى، وأن الاستقلال السياسى يكون زائفًا إذا لم يكن هناك استقلال اقتصادى، بل إذا كان هناك تحكم اقتصادى؛ لأنه إذا كان هناك تحكم اقتصادى فسيستعمل هذا فى الضغط وفى التوجيه.

واتجهنا من سنة ١٩٥٣ إلى العمل على تنمية الإنتاج، وكان هدفنا فى هذا أن يكون لنا استقلال اقتصادى؛ اتجهنا فى هذا ونجحنا .. نجحنا لأننا معتمدون على أنفسنا، وعلى مالنا، وعلى عرقنا، وعلى قوتنا. استطعنا أن نرفع الدخل القومى من سنة ١٩٥٢ حتى سنة ١٩٥٤ بما يقرب من ١٦٪، وبعد ذلك استطعنا أن نحقق من سنة ١٩٥٤ حتى ١٩٥٦ نفس هذه النسبة أو أكثر.

إذن نحن نعمل، ولسنا ساهين.. لسنا لاهين، فنحن نعرف الأساليب والألاعيب التى اكتوينا بها واكتوى بها أجدادنا، ولهذا حينما كنا نعمل من أجل الاستقلال السياسى، كنا نعمل فى نفس الوقت من أجل الاستقلال الاقتصادى.

وبعد هذا فى أيام الجلاء وفى أعياد الجلاء، وحينما شعرنا بالاستقلال السياسى؛ اتجهنا إلى العالم أجمع، وقلنا فلننس ما مضى، واتجهنا أيضاً إلى المستعمرين، وإلى الناس الذين جاءوا واحتلونا وخرجوا، بعد أن قتلوا آباءنا

وأجدادنا، وقلت فى يوم ١٩ يونيو: إننى سأمد يدى للجميع، وإن مصر تمد يدها إلى الجميع، وإنها ستسالم من يسالمها وتعادى من يعاديها.

إننا نتجه لتحقيق سياستنا.. سياسة مستقلة، تنبع من مصر، لا من لندن، ولا من واشنطن، ولا من مــوسكو، ولا من أية دولة من الدول؛ تنبع من ضميرنا.. تنبع من إحساسنا. وقلت إننا مستعدون للتعاون مع الجميع، ولكن هذا التعاون لن يكون أبداً على حساب قوميتنا، أو على حساب عروبتنا، وطبعاً لن يكون على حساب استقلالنا، أو على حساب كرامتنا.

هذا الكلام - الذى قلته يوم ١٩ يونيو الماضى - هو نفسه الكلام الذى كنت أقوله منذ قامت الثورة، وأنا اليوم سأقول لكم كل شىء منذ قامت الثورة، فى المفاوضات وفى المقابلات حتى تكونوا على بينة.

***

من سنة ١٩٥٢، وبعد نجاح الثورة، بدأت تتصل بنا إنجلترا وبدأت تتصل بنا أمريكا، وبدأوا يطالبوننا بالتحالف معهم ونتفق معهم؛ ونعقد أحلافًا.. واتفاقات. وكان كلامنا إليهم أننا لا نستطيع أن نتحالف.. ليس ممكناً أن ندخل فى حلف إلا الحلف الذى يضم الدول العربية وحدها.

كنت أقول لهم هذا الكلام، وهو موجود فى محاضر المفاوضات، إننا إذا دخلنا فى حلف مع بريطانيا.. هل تستطيع مصر أن تملى إرادتها على بريطانيا؟ بل هل تستطيع مصر أن يكون لها رأى بجانب بريطانيا؟

وإذا جلسنا على مائدة واحدة وكان فيها «مستر إيدن» يمثل بريطانيا، ونحن نمثل مصر، كيف تتحالف دولة كبرى مع دولة صغرى مثلنا؟ إنه لن يكون حلفًا بل سيكون تبعية، كنت أقول لهم إن هذه تبعية، ونحن لا نقبل التبعية أبداً..

نستطيع أن نتعاون معكم معاونة الند للند، نستطيع أن نتفاهم، نستطيع أن نكون أصدقاء، ولكنا لانقبل أبداً أن نكون أذيالاً أو نكون تابعين.

فى أول جلسة من جلسات المفاوضات - وأعتقد أنها كانت فى إبريل سنة ٥٣ - كان «الجنرال روبرتسون» موجوداً، وطلب منا أن نوقع مع بريطانيا حلفاً لمدة ٢٥ عاماً، فرفضنا وقطعت المفاوضات بعد جلستين.

رفضنا هذه المحالفة وقلنا: إننا نريد توقيع اتفاق الجلاء، ولكنا سنكافح من أجل الجلاء، لن نتحالف؛ إن محالفتنا ستجعلنا ذيلا، ستجعلنا تابعين.. وهذا الكلام إللى قلناه فى سنة ١٩٥٢، هو نفس الكلام الذى نقوله اليوم، وليس هناك فرق بين هذا الكلام وبين الذى قيل فى سنة ٥٢ فى جميع المحاضر وفى جميع الجلسات.

بدأنا فى سنة ١٩٥٢ نتكلم مع الأمريكان فى تموين الجيش المصرى بالأسلحة، وقلنا لهم إذا كنتم تريدون أن تظهروا لنا إنكم أصدقاء فأعطونا ما نريد من السلاح.. ونحن لا نشحذه منكم.. بل نحن مستعدون لدفع ثمن هذا السلاح، فقالوا إننا لن نستطيع أن نعطيكم السلاح.. إلا إذا وقعتم معنا ميثاق الأمن المتبادل. فهل تعرفون معنى ميثاق الأمن المتبادل؟ معناه أن تأتى بعثة أمريكية تجلس فى مصر هنا، وتسير أمور الجيش المصرى..

قلنا لهم إن لنا تجارب، ونحن كأناس كنا موجودين فى الجيش لنا تجارب كبيرة فى هذا الخصوص.. لنا تجارب مع البعثات العسكرية. فقد جاءت بعثة عسكرية إلى الجيش المصرى سنة ٣٦، عندما كنا ضباطاً صغاراً، كنا ملازمين توانى وملازمين أوائل - وكنا نحتك بهم، وكنا نجد أن هدفهم الأول هو إضعاف الجيش المصرى.. هو بث روح الهزيمة وبث روح عدم الثقة فى الجيش المصرى، وعندنا مركب نقص وعقدة لن تنحل

من البعثات العسكرية، ولا يمكن بأى حال من الأحوال أن نقبل بعثة عسكرية؛ وبهذا لا يمكن أن نوقع معكم ميثاق الأمن المتبادل.

إننا نريد الجيش المصرى.. أن يمثل مبدأ الثورة، وقد قلنا فى مبادئنا: إننا نريد بناء جيش وطنى قوى.. نريد جيشنا جيشاً وطنياً قوياً، ولهذا فنحن لا نقبل أن يكون الجيش المصرى جيشًا تحت سيطرة ضباط أجانب؛ سواء أكانوا أمريكانا أم غير أمريكان، أو يعمل بتوجيه ضباط أجانب.. هذا الجيش لن يعمل إلا لمصلحة هذا الشعب، ولمصلحة أبناء هذا الشعب. هذا هو ما كنا نؤمن به ونعتقده ولهذا رفضنا توقيع ميثاق الأمن المتبادل.

قلنا لهم إننا مستعدون لشراء الأسلحة بالمال، ولا نطلب منكم معونة أو حسنة أو صدقة أو نطلب منكم شيئًا بالمجان. ولكنهم ترددوا، ثم وعدوا.. قالوا لنا نحن مستعدون لإعطائكم، فى آخر سنة ٥٢، مستعدون لإعطائكم ما تريدون من سلاح، وأرسلنا إليهم أناسًا تأتى بالأسلحة، ولكن طبعًا عاد هؤلاء الناس بعد مساومة مرفوضة!. وقصة الأسلحة طبعاً أنتم تعرفونها..

لم يقبلوا إعطاءنا شيئًا أبداً، لا بالمجان ولا بالثمن إلا بعد أن نمضى صك كرامتنا، وصك عبوديتنا، وصكاً نسلم به وطننا، ونسلم به أبناءه لهم؛ ليسيروهم كما يشاءون، وليعملوا فى مصر كما يطلبون..

كانوا يريدون منا، أن نوقع صكوكًا تمكنهم منا، وتعتبرنا فى هذه البلد غرباء، لا نستطيع أن نقرر سياستنا، ولكنا نتبع السياسات التى تملى علينا من الاستعماريين، وتجار الحروب، والمستغلين والمستبدين.

هذا هو الكلام إللى قلناه يا إخوانى سنة ١٩٥٢ وهذا هو ما نقوله اليوم بصوت عال ونعلنه للعالم، ليس هذا الكلام جديداً، بل إنه موجود فى

محاضر المفاوضات التى حدثت فى سنة ١٩٥٣، وقلناه من أول يوم من أيام الثورة.

وبعد بدأ الكفاح فى القناة؛ ولم نكن ننشر أخباره فى الصحف.. حدث فى القناة قتال مرير مات فيه أناس كانوا يؤمنون بالنصر، وبحرية مصر، كانوا يؤمنون بكم وبعزتكم، وكان أقصى ما يتمناه كل منهم أن يهب روحه فداء هذه المبادئ العليا مثل مصطفى حافظ وصلاح مصطفى، أناس ذهبوا إلى القنال، ليقاتلوا ويكافحوا، واستطاعوا أن يجعلوا القوة الإنجليزية التى تبلغ ثمانين ألفاً فى القناة – لا تحمى الشرق الأوسط أو تحمى القناة، ولكنها لا تستطيع حتى حماية نفسها، استطاعوا أن يجعلوا هذه القوة موجودة لتدافع عن وجودها.

هؤلاء هم الناس الذين ضحوا فى القناة.. الجنود المجهولون الذين خرجوا من وسطهم وذهبوا ليذيقوا قوات الاحتلال كل صنوف العنف والقوة، واستطاعوا أن يجعلوا هذه القوة تقف آخر الأمر لتعلن أنه لا يمكن أن توجد فى بلد معاد، القاعدة لم تجد لها فائدة من بقائها فى بلد معاد.. وهؤلاء الثمانية والثمانون ألفًا الذين جاءوا بهم لحماية الشرق الأوسط لم يستطيعوا حماية أنفسهم، وليس هناك أمل أن نبقيهم هنا.. هذا هو السبب الأساسى فى الوصول إلى اتفاقية الجلاء.

الكفاح. والعرق. والدماء. والجهاد. والاستشهاد.. الناس إللى ماتوا وما قلناش أساميهم، الناس الذين أصيبوا ولم نقل أسماءهم فى معارك القناة الطويلة التى استمرت منذ قامت الثورة حتى أعلن الجلاء.. كان هذا هو السبب الأساسى فى الجلاء.

خرجت إنجلترا من مصر، وهى تؤمن ألا وجود لها فى مصر؛ لأن شعب مصر قد استيقظ، ولأن شعب مصر قد آلى على نفسه أن يحقق لها

الحرية فى الحياة، ولأن شعب مصر آلى ألا توجد سيادة فى مصر إلا لشعب مصر، ولأن شعب مصر آلى ألا يرتفع فى سماء مصر إلا علم مصر.

كان هذا هو السبب الحقيقى للجلاء، لم يكن الكلام أبداً، ولم تكن المفاوضات، واستطعنا أن نحصل على اتفاق مع إنجلترا على جلاء جميع قواتها عن أرض مصر.. كانت معركة طويلة، وكانت معركة مريرة.

ولكن هل انتهت هذه المعركة؟

لم تنته هذه المعركة.. الاستعمار - يا إخوانى - له أشكال مختلفة.. وله أشكال متلونة.. وهو أول ما بدأ كان يتمثل فى الاحتلال بالقوات المسلحة، وبعد هذا أخذ يتطور ويتطور ويتطور. اليوم الاستعمار بيتمثل فى أعوان الاستعمار.. استعمار بدون جنود، وبدون قوة مسلحة، ليستطيع أن يحقق مآربه، وأغراضه بواسطة أعوانه من الخونة الذين يتواجدون فى كل بلد..

إن الاستعمار يتلون ويتشكل، فآلينا على أنفسنا أن نقاوم الاستعمار بجميع أنواعه.. الاستعمار السافر، الاستعمار المسلح، الاستعمار المصحوب بالاحتلال، والاستعمار المقنع تحت أشكال أعوان الاستعمار، وتحت شكل المحالفات، وتحت شكل الاتفاقات اللى بتعتبر فيها الدول ذيولاً وأذناباً.

وبدأ الاستعمار يتآمر من حولنا ويحيك الدسائس؛ حتى يستولى على الدول العربية دولة دولة.. وبهذا يحاصرنا من جميع النواحى؛ وبهذا يستطيع أنه يملى علينا إرادته؛ فقاومناه.. قاومنا هذه الدسائس، وكان الوعى العربى وكانت القومية العربية قد استيقظت، واشتعلت، واتقدت فى جميع البلاد العربية.. فى كل مكان؛ فلم يستطع الاستعمار أن يحقق

أغراضه، ولم يستطع الاستعمار أن يحقق أهدافه، وانتصرت القومية العربية.. انتصرت حركة التحرير العربية.. انتصرت القومية العربية على الاستعمار، وهزم الاستعمار شر هزيمة.

هزم الاستعمار في ديسمبر الماضي في الأردن، حينما أرسل «الجنرال تمبلر» ليجبر الأردن كان الاستعمار يعتقد أنه قوى، وأنه قوة هائلة، وأن الأردن – الذي يتكون من مليون ونص مليون نسمة – سيخضع ويخنع، ولكن رئيس أركان حرب الإمبراطورية البريطانية «الجنرال تمبلر» هرب من الأردن.. هرب رئيس أركان حرب الإمبراطورية البريطانية لأن القومية العربية انتصرت.. وآمنت بنفسها وبقوتها، وبحقها في الحياة.. القومية العربية انتصرت.. واشتعلت، فلم يستطع الاستعمار أبداً أن يحقق أي غرض من أغراضه.

وبهذا كان حلف بغداد؛ الذي يعتبره وسيلة من الوسائل التي يتحكم بها فينا، وفي رقابنا، ويستطيع أن يقيدنا بالسلاسل، ويملي علينا إرادته.. حلف بغداد وقف في مكانه.. تجمد.. ولم يستطيعوا أن يضموا إليه دولة عربية؛ بفضل الوعي العربي، وبفضل القومية العربية، وبفضل الرأي العام العربي.

إذن – يا إخواني – دخلنا معارك في مصر، ودخل العرب معارك في خارج مصر.. هناك معارك في الوطن العربي كله..

عاون الاستعمار فرنسا في الجزائر وفي تونس وفي مراكش، قوات حلف الأطلنطي؛ التي أنشأوها وسلحوها منذ خمس سنوات أو أكثر، وينفقون عليها بملايين الدولارات، كلها انتقلت من أوروبا إلى شمال إفريقيا؛ لتقاتل الناس الذين يطالبون بحقهم في الحرية، وفي تقرير المصير وبحقهم في الحياة. أمريكا زعيمة العالم الحر تؤيد فرنسا المستعمرة في تقتيل الجزائريين في الجزائر.

بريطانيا تؤيد.. الدول التى تنادى بنفسها وتقول: إننا زعماء العالم الحر، وإننا نتمنى الحرية.. ونتمنى تقرير المصير.. الدول التى وقعت ميثاق الأمم المتحدة وحقوق الإنسان، الدول التى وقعت إعلان الأطلنطى.. إعلان «روزفلت» ويقول فيه إن لكل شعب أن يقرر مصيره.. ولكل شعب أن يكون حراً.. كل هذا الكلام نسوه أو تناسوه ،و بدأوا يحاربون القومية العربية فى الجزائر..

مضت سنتان حتى اليوم، وجيوش هذه الدول كلها تحارب فى الجزائر.. تحارب عشرة ملايين جزائرى فهل استطاعوا أن ينتصروا على الجزائر؟

لقد استطاعت القومية العربية فى الجزائر أن تهزم فرنسا وتوقع بها أشد الهزائم، واستطاعت القومية العربية فى الجزائر أن تهزم حلفاء فرنسا التى يصرحون لها بالأسلحة؛ أمريكا وبريطانيا ودول الأطلنطى كلها، بل استطاع المجاهدون فى الجزائر بأسلحتهم البسيطة المحدودة أن يقضوا على القوات المسلحة بالدبابات والمدافع وأكبر الأسلحة.. القوات التى جهزها الإنجليز والأمريكان لتقف أمام روسيا.. أرسلوها إلى الجزائر.. لكنها لم تستطع الوقوف أمام الجزائر!

ما معنى هذا يا إخوانى؟

القومية العربية اشتعلت - كما قلت لكم - من المحيط إلى الخليج - القومية العربية تشعر بوجودها، تشعر بكيانها، تشعر بقوتها، وتشعر بحقها فى الحياة.

هذه هى المعارك التى نخوضها الآن.. لا نستطيع أبداً أن نقول إن معركة الجزائر ليست معركتنا، ولا نستطيع القول إن معركة الأردن فى

ديسمبر الماضى لم تكن معركتنا، ولا نستطيع أن نقول معارك الأحلاف ليست معاركنا.

فإذا قلنا هذا نتنكر لعروبتنا، ونتنكر لقوميتنا، ونتنكر لأنفسنا، ونتنكر لمصائرنا لأن مصائرنا مرتبطة ببعضها.. مصيرى هنا مرتبط بمصير أخى فى الأردن، وأخى فى لبنان وفى سوريا وفى كل بلد، وفى السودان..مصائرنا مرتبطة.

لقد خلقنا هكذا فى هذا المكان من العالم، مصائرنا تؤثر على مصائر البعض.. مصير كل واحد فينا يؤثر على مصير الآخر، لا نستطيع القول أبداً إن هذه ليست معاركنا.. فهذه معاركنا.. معارك كل فرد من أبناء العروبة.

ماذا يريد الاستعمار؟ الاستعمار يريد أنَ نكون تابعين، وحينما يأمر.. ننفذ أى أمر.. نكون تحت الأمر، هناك دول كثيرة تتبع فيها هذه الطريقة، وليس هناك داعى لأن أقول أسماءها.. كل واحد فيكم يعرفها.. دول تتلقى الأوامر، وهى الدول التى تولى الأمر فيها صنائع الاستعمار وأعوان الاستعمار، والذين لا يؤمنون بأنفسهم. ولا بوطنهم، ولا بقوميتهم، ولكنهم يؤمنون بالسفراء والمندوبين السامين إلى آخر هذا الكلام.

يريد الاستعمار منا أنَ نكون بهذا الشكل.. لا يمكن.. لماذا قامت هذه الثورة؟! لماذا قاتل الشعب؟! لماذا كافح الشعب؟! هؤلاء الذين استشهدوا سنة ١٩١٩ وسنة ١٩٣٦ وسنة ١٨٨٢ وقبل ذلك على مر السنين، هل كانوا يقاتلون ويموتون لنعود آخر الأمر تابعين ونتلقى أوامرنا من أى بلد من البلاد؟!

إنهم يريدون منا إن نسمع أوامرهم.. وطبعًا نسمع أوامرهم بخصوص إسرائيل، يقولون لنا إن طلبات إسرائيل يجب أن تلبى.

وحين نقول وأهل فلسطين؟! يقولون هذا موضوع سنتكلم فيه فيما بعد.. موضوع يؤجل..

ونقول لهم: لكن هؤلاء عرب مثلنا، وقد لا تنظرون إليهم كما ننظر إليهم نحن.. لكنهم عرب وقد شردوا.. فأين حقوقهم؟؟ ويردون ويقولون: ندفع لهم بعض المال!!.

ليس كل واحد يستطيع بيع وطنه بالمال.. فلسطين بلد عربى قديم له آلاف السنين.. قد تكون بلدكم حديثة لها مائة سنة فقط، عمرها صغير، وليس لها تاريخ.. لكن نحن نعتز بأرضنا وبهذه العروبة ونعتز بوطننا.. فإن وطن الواحد منا لا يقدر بثمن ولا يقدر بمال..

ثم نقول لهم إنكم تنظرون نظرة مادية.. ونحن لا نرى الأمور - كشرقيين - بهذه النظرة المادية.. قد تكون عندنا النظرة المعنوية تساوى أكبر مبلغ يمكن واحد يتصوره.

كانوا يريدون منا أن نسلم لإسرائيل بكل شىء، ونهمل حقوق عرب فلسطين.

كانوا يريدون أن نتنكر لإخواننا فى شمال إفريقيا، وقد يريدون أكثر من هذا أن نوافق كما وافق مجلس الأمن من أسبوعين. مجلس الأمن الذى تسيطر عليه هذه الدول الكبرى وافق واعترف، وأقر قيام المذابح والمقصلة فى الجزائر؛ لأنه رفض أن يناقش موضوع الجزائر.

يريدون منا أن نتبع هذه الطريقة ونتبع هذا الأسلوب.. يريدوننا أن ننفذ السياسة التى تملى علينا.

عندما قامت مصر وأرادت أن تكون لها الشخصية المستقلة، وأرادت أن تكون لها قومية حقيقية وعزة حقيقية وحرية حقيقية؛ منعوا عنها السلاح وسلحوا إسرائيل، وبدأ خطر إسرائيل يهددنا.

و.. بدأنا نطالب بالسلاح من بريطانيا، فسافرت بعثة مصرية لبريطانيا تطالب بالسلاح، فقالوا لهم إننا مستعدون لأن نعطيكم السلاح على شرطين.

الشرط الأول هو: أن عبد الناصر عندما يسافر إلى باندونج.. يسكت. ولا يتكلم أبداً!!

والشرط الثانى: هو أن تكفوا عن مهاجمة سياسة الأحلاف وتتركونا ننفذ خطتنا كما نريد!!

لم تكن العملية بيع وشراء، كانت العملية استخدام السلاح للسيطرة والتحكم.

وهل كنا نريد سلاحاً يقرر سياستنا، أم سلاحاً نقرر نحن سياسته؟!

هل نريد سلاحًا يقودنا ويسيرنا كما يريد الناس الذين يبيعونه لنا.. أم نريد سلاحًا نستخدمه فى تحقيق أهدافنا، وفى تثبيت دعائم حريتنا واستقلالنا؟!

طبعًا ليس هناك داعى أن نأتى بسلاح ونشتريه.. وندفع ثمنًا له.. شخصيتنا وندفع فيه مبادئنا..!!

وبهذا لم نستطع أن نشترى منهم سلاحاً.

طالبنا بالسلاح.. وطالبنا بالسلاح بدون أية فائدة رغم أنه بالثمن.. لم نكن نطلب سلاحاً مجاناً ولا معونة ولا صدقة ولا حسنة.

وبعد هذا كله، استطعنا أن نشترى السلاح من روسيا.. أقول من روسيا وليس من تشيكوسلوفاكيا.. اتفقنا مع روسيا على أنها تمدنا بالسلاح.. ووافقت روسيا على أن تمدنا بالسلاح، وتمت صفقة الأسلحة..

وبعدها حصلت الضجة الكبرى..

ما الغرض من الضجة؟

يقولون: إنه السلاح الشيوعى..!!

إننى لا أعرف سلاحاً شيوعياً وسلاحاً غير شيوعى..!!

أنا أعرف أن السلاح الذى يأتى لمصر يصبح سلاحاً مصرياً.

وبدأت صحافتهم حملتها وضجتها..

وبدأت أعجب لهذه الضجة، وكل واحد.. يستغرب ما هذه الضجة؟ ما سببها؟.. لقد قالوا: إنهم قد رسموا خطة للمحافظة على ميزان التسلح فى الشرقالأوسط.!

وكما يفهمون هذا الكلام، فهنا سبعون مليون عربى ومليون صهيونى.. عندما يعطون السبعين مليوناً بندقية، يعطون للمليون صهيونى بندقيتين؛ ليكونوا دائماً متفوقين على العرب، وعامل تهديد لهم.. يعطوا الدول العربية كلها طيارة.. ولإسرائيل طيارة، ويقولون: هذا لحفظ التوازن.. أى توازن؟.. ومن الذى جعلكم أوصياء لكى تحققوا هذا التوازن؟

هل طلبنا منكم الوصاية؟.. نحن شعب حر مستقل ولا نقبل وصاية من أحد.. لا نقبل أبداً الوصاية. ولكن كان فى جانبهم السلاح.. احتكار السلاح.. الاحتكار الذى كانوا يتحكمون به فينا.

فحينما استطعنا أن نقضى على هذا الاحتكار، واستطعنا أن نحصل على الأسلحة التى نريدها فى أسرع وقت، وقد رأيتموها فى الاستعراض الماضى.. عندما حصلنا على هذه الأسلحة انهارت كل الخطط، ولم يبق

هناك تحكم عن طريق السلاح، لم تبق هناك سيطرة، لم يستطع الاستعمار أن ينفذ أغراضه وأهدافه عن طريق الوعد ببعض الأسلحة.

كتب أحد الإنجليز فى صحيفة يقول: نحن نعرف إن هؤلاء العرب كلما غضبوا أعطيناهم بعض الأسلحة كلعب يلعبون بها.. كلام كتبوه فى جريدة من الجرائد، لكى يضللونا ويخدعونا.

ومن الذى أقام إسرائيل فى هذه المنطقة؟ من الذى كان منتدبًا على فلسطين؟ من الذى سلمته عصبة الأمم بعد الحرب العالمية الأولى حق الانتداب على فلسطين؟ إنها.. بريطانيا، من الذى أعطى وعد «بلفور» سنة ١٧؟ بريطانيا، من الذى سبب نكبة أهالى فلسطين وسمح للصهيونيين أن يتسلحوا وللعرب ألا يتسلحوا!؟ بريطانيا.. بريطانيا هى التى كانت قائمة بالانتداب، وكانت تعلم أن هناك منظمات إرهاب، وتعلم أن هناك منظمات مسلحة، وتعلم أن فى داخل إسرائيل جيش اسمه جيش «الهاجناه» مسلح بأسلحة حديثة، وسيقوم ليستولى على فلسطين، ويقضى على العرب قضاء كاملاً.

بريطانيا وهى تعلم هذا جاءت فى يوم ١٥ مايو سنة ٤٨ وتركت العرب للصهيونيين، وهى تعلم أن الصهيونيين مسلحون وأن تسليحهم قوى، وأن العرب عزل من السلاح.

ماذا كانت تهدف بريطانيا؟ بل ماذا كان يهدف الاستعمار؟ وماذا كانت تهدف أمريكا؛ التى اعترفت بإسرائيل يوم ١٥ مايو، بعد دقيقة من إعلانها؟ كانوا يهدفون إلى هدف واحد يجب على كل فرد منا أن يعلمه ويعلمه لأولاده وهو: القضاء على قوميتنا..

إنهم يعتبرون أن لنا قومية تجمعنا من المحيط إلى الخليج، كلنا عرب نتكلم باللغة العربية..

هذه قوة يجب أن يعمل لها حساب، لأنها إذا استيقظت ستصبح قوة دولية كبرى، كيف السبيل إلى تلافى هذا فى المستقبل؟ يأتون إلى مكان مثل فلسطين ونرى أنه لأول مرة فى تاريخ العالم، يحدث ما حدث فى فلسطين.. يقضون على أهل فلسطين قضاء كاملاً ويحضرون بدلاً منهم الصهيونيين. وفى الماضى كان يحدث غزو ، وكانت تحدث حروب.. فمثلا: ألمانيا حاربت فرنسا.. غزت فرنسا عدة مرات.. ثم غزو ألمانيا فى الحرب العالمية الثانية.. بلاد كثيرة حاربت، ولكن لم تكن هناك إبادة للجنس أو للقومية..

بعد الحرب كل فرد يرجع لبلاده، ولكن الجنس يبقى والقومية تبقى.

ما حدث فى فلسطين كان عملية إبادة، ولم تكن هذه العملية تهدف إلى إبادة فلسطين فقط؛ ولكنها كانت تهدف إلى إبادة القومية العربية جميعاً.. كانت تهدف إلى القضاء على القومية العربية، وكان الصهيونيون يعلنون دائمًا أن وطنهم المقدس يمتد من النيل إلى الفرات، وكان الصهيونيون - إلى وقت قريب يقولون: إننا نريد أن نستأنف حرب التحرير لنحرر سيناء!

نحرر سيناء من مصر.. ونحرر الأردن من العرب، ونحرر جزءاً من العراق!!. يقولون هذا الكلام فى برلمانهم.. يقولون نريد تكملة حرب التحرير. إذن لم تكن العملية عملية فلسطين، ولم تكن فقط مجرد وطن قومى لليهود؛ ولكنها كانت عملية إبادة.. للقومية العربية وإبادة للعرب.. إبادة كاملة و.. قضاء على جنس كامل.

كان لابد لنا أن نطلب سلاحًا لندافع عن أنفسنا لكى لا نصبح لاجئين كما أصبح أهل فلسطين لاجئين وهم فى حماية بريطانيا تحت الانتداب. كان لابد أن نجد سلاحًا بأى سبيل من السبل، وبأية طريقة من الطرق؛ حتى لا نكون دائمًا تحت هذا التهديد، وحتى لا نكون دائمًا تحت تهديد الاستعمار، إنه كان يحرك ضدنا ربيبته إسرائيل، وصديقته إسرائيل.

أحضرنا السلاح، وتعاقدنا على هذه الأسلحة، وأحب أن أقول لكم ونحن نؤمن بمبادئ؛ إن هذه الأسلحة كانت بدون قيد ولا شرط، ندفع ثمنها فقط وليس هناك أى قيد، ولا شرط، وأصبحت هذه الأسلحة اليوم.. ملكاً لنا.

***

بعد إعلان صفقة الأسلحة أرسلت واشنطن مندوباً إلى مصر هو «مستر ألان».. «جورج آلان» الذى نقلوه إلى أثينا فى الأسبوع الماضى.. جاء مندوباً إلى مصر يحمل رسالة من الحكومة الأمريكية، وكان من المفروض أنه يقابلنى، وجدت التلغرافات من واشنطن ووكالات الأنباء تقول: إن «مستر ألان» يحمل إنذاراً إلى مصر.. «مستر ألان» يحمل تهديداً إلى مصر، تهديد بقطع كذا وقطع كذا، وعمل كذا وعمل كذا.

ثم اتصل بى أحد الأمريكيين الرسميين وطلب مقابلة خاصة، فقابلته، وقال لى: إنه متأسف جداً لما وصلت إليه الحالة بين أمريكا ومصر، إن مع «ألان» رسالة شديدة من حكومة أمريكا قد تمس الوطنية المصرية والعزة المصرية، وإنى أطمئنك بهذا الخصوص إن هذه الرسالة سنستطيع أن نقضى على أثرها؛ وأنا أنصحك أن تقبل هذه الرسالة.

سألته.. رسالة بها إهانة لمصر والعزة المصرية.. ما معنى إهانة الوطنية المصرية والعزة المصرية؟!

قال: ان هذه رسالة من «مستر دالاس».. رسالة شديدة جداً، ونحن متعجبون كيف أرسلت هذه الرسالة! ونحن نطلب منك أن تكون هادئ الأعصاب – وأنت طول حياتك هادئ الأعصاب – ونرجو أن تقبل هذه الرسالة بأعصاب هادئة.

فقلت له كيف أقبل رسالة بها جرح للعزة المصرية؟!

فقال: لن تترتب على هذه الرسالة أية نتيجة عملية، وأنا أضمن لك هذا، وستجرح العزة المصرية فى هذه الرسالة، وإنما فى العمل لن تجرح العزة المصرية.

قلت له: اسمع.. لست رئيساً للوزراء محترفاً، أنا رئيس وزارة جئت بثورة، ولم أكن أفكر فى حياتى إننى سأكون رئيساً للوزارة، يعنى جاء هذا الأمر هكذا. مندوبكم إذا جاء لى فى المكتب وتكلم كلمة سأطرده من المكتب.. هذا كلام رسمى، وسأعلنه للشعب المصرى، إنكم أردتم أن تهينوا عزته وتهينوا كرامته، فإننا سنقاتل جميعاً لآخر قطرة فى دمائنا، وأنا عن نفسى سأقاتل فى سبيل عزة مصر وكرامتها لآخر قطرة فى دمى؛ لأن هذه هى المبادئ اللى أنا قمت من أجلها..

إذا كنتم ستهددون بقطع معونة.. لن يكون هناك تهديد، سأخرج وأعلن قطع المعونة، تهددون بأى شىء، سأعلنه، وأحب أن تعرفوا أننا لم نتلق دروساً فى الدبلوماسية أو السياسة، ونحن أناس قمنا بثورة، ونعمل لتحقيق أهداف هذه الثورة.

هذا ما حدث فى أوائل أكتوبر، ثم طلبنى مرة أخرى وقال إنه أبلغ هذا الكلام لـ «مستر ألان»، وإن «مستر ألان» محتار.. يقول: إنه إذا جاء إليك

ليبلغك هذه الرسالة فإنه سيطرد، وإذا عاد لـ «مستر دالاس» ولم يبلغ الرسالة، فإن «مستر دالاس» سيطرده!

قلت له: إننى أعرف شيئًا واحدًا؛ إنه إذا حضر وأبلغنى هذه الرسالة سأطرده، أما عما إذا كان «دالاس» سيطرده أو لا يطرده فهذا موضوع لا يهمنى.

وجاء «مستر ألان» ولم يفتح فمه بكلمة، جلس واستمع إلى وجهة النظر المصرية، وقال وجهة النظر الأمريكية بإيجاز.

هذه هى الضجة التى حدثت بعد السلاح.. تهويش، تضليل، يعاملوننا على أساس الماضى.. فاهمين أننا سياسيون محترفون، ولكن استطاعت مصر أن تحافظ على عزتها، وكرامتها.

قامت ضجة فى كل مكان بسبب الأسلحة، وتهديدات، وكنت أقرأ الصحف الإنجليزية والفرنسية والأمريكية كل يوم.. أقرأ العجب، شتيمة لا حد لها، إنهم يسبوننا لأننا أخذنا السلاح، و.. لأننا أفلتنا من «الخية» التى صنعوها لنا.. من السلاسل التى كبلونا بها.. أفلتنا، واستطعنا بالرغم منهم أن نبنى بلدنا، نبنى قوتنا، ونقرر سياسة مستقلة حقيقية.

هذه هى ضجة الأسلحة.. طبعًا الآخرون.. كانوا يهددون ويتكلمون.. ولكن لماذا كنت أنا أتكلم هذا الكلام؟ كنت أتكلم وأنا مطمئن – يا إخوانى - كل الاطمئنان، كنت أتكلم وأنا أشعر بالقوة.. لماذا؟ لأنى أشعر أن هذا الشعب جميعه – ٢٣ مليونًا – كلهم سيكافحون فى سبيل العزة التى تحققت، وفى سبيل الاستقلال لآخر قطرة فى دمهم..

هذا الشعب جميعه.. لم أكن أتحدث بقوة جمال عبد الناصر، أنا سأقاتل بقدر ما أستطيع ولآخر قطرة فى دمى فعلاً.. ولكن كنت متأكداً أيضاً أنكم جميعاً، كل أبناء مصر سيقاتلون لآخر قطرة فى دمهم.

لم تكن هناك تفرقة ولا حزبية ولا انقسامات ينفذون منها كما كانوا ينفذون فى الماضى، وإنما نحن جميعًا كتلة وطنية، جبهة متحدة وراء أهداف هذه الثورة التى قامت سنة ٥٢.

كنت أتكلم بهذه القوة.. وبهذه الشجاعة لأنى كنت أعرف أن ظهرى مسنود.. مسنود بكم أنتم.. وبقوتكم، وبعزيمتكم، وبتصميمكم.

هذا كان موقفى.. لم تكن العملية شجاعة من جمال عبد الناصر، أو قوة من جمال عبد الناصر.. وإنما كانت عملية شعب متحد، قوى.. جمــال عبد الناصر يحس أن ظهره مسنود.. يشعر أن وراءه شعباً قوياً قاتل على مر الأيام وكافح ومستعد أن يقاتل، وأن يكافح..

شعب قوى عرف طعم الحرية وعرف طعم العزة، ورأى لأول مرة علم بلده يرتفع وحيداً.. شعب قوى، أحس بهذه الأحاسيس، مستعد أن يقاتل، مستعد أن يضحى كما ضحى مصطفى حافظ وصلاح مصطفى فى الأسابيع الماضية.

وكانت آخر كلمة قالها صلاح مصطفى.. بعد أن أغمى عليه يومين، «أبلغوهم فى مصر لكى يحذروا وينتبهوا..» كانت هذه آخر كلمة يقولها صلاح مصطفى؛ لأنه كان يؤمن بمبادئ.

هذه هى الطينة التى خلق منها هذا الشعب وصلاح مصطفى واحد منكم، ابن تاجر فى الريف.. ولد فى المنصورة، وتعلم فى المنصورة، يحس بإحساسكم ويشعر بشعوركم. كنت أحس بأن ورائى ٢٣ مليون صلاح مصطفى ، كل واحد فيهم سيضحى بدمه ويضحى بنفسه فى سبيل إرساء قواعد العزة، وفى سبيل إرساء قواعد الاستقلال. هذا هو الدافع الذى كان

يعطينى القوة، وهذا هو الدافع الذى كان يجعلنى أخاطب مندوب الحكومة الأمريكية - بأساطيلها وقوتها وعظمتها - وأقول له هذا الكلام، سأطرد مندوبكم لأننى أعرف أن الشعب المصرى لن يقبل هذا، وسيكافح ضد هذا، وسيقاتل فى سبيل حريته لآخر نقطة دم فى عروقه.

وانتهت قصة المفاوضات والأحلاف الضغوط، وبعدها انتهت قصة السلاح، وبدأت قصة السد العالى.

***

فى سنة ٥٣ - يا إخوانى - كما قلت لكم رسمنا خطة للتنمية الإنتاجية؛ لزيادة الدخل القومى، وقلنا يجب أن نزيد الدخل القومى بسرعة مضاعفة لسبب وهو: إننا نزيد كل عام نصف مليون، أى أننا بعد ٣٠ سنة سنكون حوالى ٤٠ مليوناً، ومستوى معيشتنا لا يعتبر مستوى معيشة محترم.. إذن أمامنا عمليتان.. الأولى أن ننتج لرفع مستوى المعيشة، وننتج حتى نوجد دخلاً مادياً يكفينا كل سنة؛ أى لابد أن يكون إنتاجنا مضاعفاً لزيادة الدخل القومى، ورفع مستوى المعيشة.

وبدأنا نفكر.. فوجدنا أن مياه النيل تتجه إلى البحر وتذهب للبحر هدراً كل عام.. قلنا: نستطيع أن نستفيد من مياه النيل.. وجاء شخص وعرض علينا مشروع السد العالى سنة ٥٢، وضع موضع البحث سنة ٥٣. وهذا المشروع كان موجوداً من سنة ٢٤، وكانوا يقولون إن هذا الرجل مجنون، لكن وضعنا هذا المشروع موضع الدراسة.

ثم قابلتنا عقبة التمويل. المشروع ثبت أنه صالح؛ يعطينا حوالى مليون ونصف مليون فدان زيادة فى الأراضى الزراعية، ينفذ فى عشر سنوات، ويعطينا كهرباء مليار كيلو وات زيادة.. إذن فهو مشروع له عائد وله تأثير

فى رفع مستوى المعيشة. قلنا فلنتجه إلى تنفيذ هذه المشروع بجانب تنفيذ المشروعات الأخرى الخاصة بتنمية الإنتاج.

هكذا بدأنا نقابل عقبة التمويل.. ليس عندنا من المال ما يكفى لدفع نفقات هذا المشروع؛ التى تبلغ حوالى ألف مليون دولار على ١٠ سنوات.

فى سنة ٥٣ اتصلنا بالبنك الدولى وكلكم الآن تعرفون البنك الدولى، بعد البيانات التى أصدرها والردود عليها.. اتصلنا به سنة ٥٣، وطلبنا منه - ونحن مشتركون فى البنك الدولى ولنا فى خزينته عشرة ملايين دولار من أموالنا.. طلبنا منه المساهمة معنا فى تمويل هذا المشروع.

فقال إن هناك عقبات، وأن الأحوال عندكم لا تدعو إلى الاطمئنان، فهناك الإنجليز وإسرائيل، ويجب أن تسووا موضوعكم وخلافكم مع الإنجليز، وتسووا خلافكم مع إسرائيل، وبعد ذلك نستطيع تمويل هذا المشروع.

وأيضاً أنتم عندكم نظام برلمانى، ونطلب منكم أن تعملوا استفتاء على هذا المشروع!

الكلام الذى قالوه لى كان كلاماً غريباً جداً! وبناء عليه كان الواضح أنه ليست هناك مساعدة!!

قلنا إننا نعتمد على أنفسنا، وعلى شركات الصناعة التى ستعاوننا على بناء هذا الخزان، واتصلنا بالشركات الأجنبية والحكومة الألمانية، وقالوا إنهم مستعدون لإعطائنا خمسة ملايين جنيه كقرض ثم اتفقت الشركات الألمانية مع الشركات الفرنسية والشركات الإنجليزية على القيام بهذا المشروع لأنهم سيكسبون منه؛ فقيمة المشروع نحو بليون دولار، وسيكون

ربحهم فيه ثلثه أو نصفه والآلات التى يقيمون بها المشروع فيها تنشيط لصناعتهم.

وفى شهر نوفمبر سافر وزير المالية إلى واشنطن واتجه إلى لندن وقابل وزير المالية الإنجليزى «مستر باتلر»، وتكلم معه، وتفاوض معه لرفع هذا القرض من خمسة ملايين إلى ١٥ مليونا، أى أن يكون مجموع ما تدفعه الدول الثلاث ٤٥ مليونًا تعطى لنا قرضًا عملة أجنبية لتمويل المشروع والباقى نكمله نحن عملة مصرية، وسافر وزير المالية إلى واشنطن على هذا الاتفاق.

والأمريكان قالوا لنا إنهم قرروا لمصر ٤٠ مليون دولار معونة، وكانوا قرروها على الورق، ولكنهم لم يعطونا شيئًا وكان ذلك فى ديسمبر والقرار من يونيو السابق له، وكنا نطالب وكان ظاهراً أنهم لا يريدون دفع هذه المعونة وقالوا إننا نستطيع أن نحول لكم هذه المعونة لإقامة السد العالى.

والإنجليز اقترحوا أن نأخذ قرضًا وهم يعطوننا معونة قدرها ١٦ مليون دولار؛ والـ ١٦ مليون دولار معناها خمسة ملايين جنيه، والأمريكان يعطوننا معونة حوالى ٥٦ مليون دولار، أى حوالى ٢٠ مليون جنيه. فالمعونة كلها ٢٠ مليون جنيه من الأمريكان، و٥ مليون جنيه من الإنجليز، والبنك الدولى قال: إنه مستعد يعطينا ٢٠٠ مليون دولار بعد ٥ سنين.

ونحن فى الخمس السنين الأولى علينا أن نصرف من مالنا ومن عرقنا ٣٠٠ مليون دولار.

وفى ديسمبر حدثت مباحثات مع الحكومة الأمريكية ومع مندوب الحكومة البريطانية ومع مندوب البنك الدولى، وآخر هذه المباحثات الطويلة المريرة جاءت اقتراحات من البنك الدولى.

هذه الاقتراحات هى جواب من البنك الدولى أرسله إلىّ يقول فيه إنه مستعد أن يشترك فى تمويل السد العالى بمبلغ ٢٠٠ مليون دولار، بعد سنوات خمس، وإن هذا المبلغ لن نأخذه مرة واحدة، بل نأخذه على أجزاء و.. كلما نريد كل جزء نتفاوض.

ثم وضع فى هذا الجواب شروطاً يجب على مصر أن تتبعها لتستطيع أن تأخذ هذا القرض من البنك الدولى.

وشروط القرض.. إن هذه البنود نتفاوض عليها من وقت لآخر..! وطبعًا النتيجة أننا لا نتفق ثم قال البنك إن هذا القرض يتوقف على الشروط الآتية:

* يجب أن يطمئن البنك اطمئناناً كاملاً إلى إن العملات الأجنبية المطلوبة، التى تجىء من المنحة الإنجليزية والمنحة الأمريكية، لا تنقطع أى أن البنك ربط نفسه بالمنحة الإنجليزية والمنحة الأمريكية.

فقال: أعطيكم ٢٠٠ مليون دولار على شرط رضاء الإنجليز والأمريكان عنكم بإعطائكم المنحة.

* والشرط الثانى: يجب أن يتفاهم البنك مع الحكومة المصرية، ويتفق معها من وقت لآخر على برنامج الاستثمار..

أى أن برنامجنا الخاص بالاستثمار والتصنيع لابد أن يتفق هو معنا عليه ويوافق عليه!

أى أنها وصاية من البنك الدولى على الحكومة المصرية!

* و.. لابد أن نتفق مع البنك الدولى على مصروفات الدولة، وأن يوافق عليها ثم يجب ألا تتحمل الحكومة المصرية أى دين خارجى فلا تقترض

من أحد مليمًا، وكذا لا يجوز أن نعقد اتفاقات دفع مع أحد تزيد عن الكميات المتفق عليها مع البنك الدولي.. فيجب على مصر أن تتفاهم مقدماً مع البنك قبل عقد أى اتفاق أو القيام بأى التزام حتى يكون البنك على بينة دائماً من أموالنا.

* ثم قال البنك إن تطبيق تنظيم المشروع، وتنفيذ المشروع وإدارة المشروع، وإدارة كل مرحلة من مراحل المشروع تخضع للاتفاق بين الحكومة المصرية والبنك.

* وبعد كل هذه الشروط يقول البنك فى آخر خطابه يجب أن تعلموا أن اتفاقات البنك للمساعدة فى إقامة المشروع خاضعة - بلا شك - لإعادة النظر فيها إذا جدت ظروف استثنائية.

هذا هو الجواب الذى أرسله لى البنك بعد مفاوضات ديسمبر.

والحكومة الأمريكية أرسلت مذكرة، والحكومة البريطانية أرسلت مذكرة، والبنك أرسل الجواب.

الحكومة الأمريكية تحيلنى على مذكرة الحكومة البريطانية.. وجواب البنك يحيلنى على مذكرتى الحكومة البريطانية والحكومة الأمريكية.. ومذكرة الحكومة الإنجليزية تحيلنى على جواب البنك والمذكرة الأمريكية.. أى أن المسألة عقدة، وظهر أن فيه هناك فخًا يوضع لنا للسيطرة على كياننا الاقتصادى.

هذا الكلام رفض رفضًا باتاً، وقلنا: إنه لا يمكن أن نبيع نفسنا بسبعين مليون دولار.

تكلمنا مع الأمريكان، فقلنا لهم: هل هناك شروط على المساعدات التى تعطى لإسرائيل؟

إن الـ ٤٠ مليون دولار التى تقررت لمصر معونة نأخذها، والآن يقولون لنا نعطيها لكم تبعًا لشروط البنك الدولى، والبنك الدولى يريد أن يبعث مديره ليجلس مكانى بمصر.

وهذا الكلام يتنافى مع سيادتنا، ومع استقلالنا، ومع مبادئنا. وقد قلنا لهم: إذا كنتم تريدون أن تعطونا مساعدة، فقدموها لنا.. لنصرفها كما نريد، وقارنا بين موقفنا وموقف الغرب بإسرائيل.

قلنا لهم.. تقولون إنكم أصدقاء العرب، فما هذه المساعدات التى تقدمونها لإسرائيل؟! وما المساعدات التى تقدمها أمريكا لإسرائيل، التى ذكرتها وأذكرها لكم..

إن الهبة السنوية من الحكومة الأمريكية لإسرائيل منذ قيامها حتى الآن من ٣٠ إلى ٥٠ مليون دولار..

والمساعدات الفنية التى تحصل عليها إسرائيل من أمريكا بين ٦ إلى ١٤ مليون دولار.

والمواد الغذائية الفائضة التى تهديها أمريكا لإسرائيل كل سنة قيمتها سبعة ملايين دولار.

ورءوس الأموال الأمريكية الموظفة فى إسرائيل ومشاريع إسرائيل ٢١٤ مليون دولار.

والذى بيع من سندات قرض الدولار الإسرائيلى بأمريكا حتى الآن ٢٣٤ مليون دولار.

وفى ٧/١٢ سنة ١٩٥٥ أعطى بنك أمريكا قرضًا لإسرائيل قدره ٣٠ مليون دولار.

وما جمع من جباية اليهود فى أمريكا لإسرائيل وهو معفى من الضرائب بقانون أمريكى - ٣ آلاف مليون دولار.

وما أعطى لإسرائيل من أمريكا من قروض رسمية ١٦٤ مليون دولار.

وما أرسل من تبرعات وهدايا للمؤسسات الإسرائيلية ١١٧ مليون دولار.

ومجموع التعويضات الألمانية التى تدفعها ألمانيا الغربية اليوم، والتى وافقت على أن تدفعها سنة ٥٣ بضغط أمريكى - ٣ آلاف و٥٠٠ مليون دولار، تدفع كل سنة جزءاً منها بضائع وسفنا ومصانع.

ويرغم هذا بلغ عجز ميزان إسرائيل التجارى فى العام ٢٣٠ مليون دولار، وهذا العجز بيسدد كله من المساعدات الأمريكية.

وتبرعات يهود أمريكا فى الأشهر الستة الأولى من هذا العام بلغت ٦٥ مليون دولار يقابلها ٥٨ مليون دولار جمعت فى سنة ١٩٥٥ كلها.

هذه هى المساعدات التى يقدمونها لإسرائيل.

وهذه المساعدات ترجع إلى أن إسرائيل كما نعرف هى ربيبة أمريكا؛ فهى تأخذ منها معونات؛ وهى بدون هذه المعونات لا تستطيع أن تعيش.

بالإضافة إلى هذا طبعًا يعطونهم معونة أخرى لكى يوطنوا اللاجئين، ولا أقصد اللاجئين العرب بل اللاجئين الصهيونيين المهاجرين من شمال إفريقيا، ومن بلاد أوروبا وهذه المعونة قدرها ٥٠ مليون دولار بناء على اتفاقية بين أمريكا وبين إسرائيل.

***

تكلمنا مع ممثلى أمريكا، فقلنا لهم فى فترة خمس سنين سيصرف على السد العالى ٣٧٠ مليون دولار منها ٣٠٠ مليون تدفعها مصر و٧٠ مليوناً

تدفعونها أنتم، فالمشروع الذى يتكلف بليون دولار أى ألف مليون دولار سيدفع البنك الدولى منها ٢٠٠، وأنتم تدفعون ٧٠، ونحن ندفع حوالى ٧٣٠ مليون دولار.

فهل أنا الذى أدفع ٧٣٠ مليون دولار أسلمك خزانتى! وأسلمك الحساب الخاص بى، ولا أعمل شيئًا إلا بأمرك! ولا أعقد أى اتفاق دفع إلا بإذن من البنك الدولى، ولا أعقد قرضًا إلا بإذن من البنك الدولى، ولا يمكن إقامة مشروعات داخلية إلا بإذن من البنك الدولى.

ولا أستطيع أن أقرر خطة تنمية إلا بإذن من البنك الدولى..

من الذى يقبل هذا الكلام؟!

قلت لهم: إن لنا تجربة فى مثل هذا فقد احتللنا واستغللنا والنتيجة أن جاء «كرومر» وقعد لنا هنا فى مصر. ورفضنا هذا رفضًا كاملاً، وقلنا: إننا لن نقبل هذا القرض.

وفى هذه الأيام جاء السفير الروسى، وقال: إن روسيا مستعدة لتشترك فى تمويل السد العالى فقلت له إننا نتفاوض مع البنك الدولى، ونؤجل الكلام فى التفاصيل.

وبدأنا نتكلم مع البنك الدولى، وعرفوا أن هناك عرضًا روسيًا، وعرفوا اعتراضاتنا، ثم وصل إلى مصر فى فبراير سنة ١٩٥٦ مدير البنك الدولى، وأرسل خطابًا طلب فيه أن نرسل إليه دعوة ليحضر للتكلم معنا فى كل هذه الأمور.

وبدأت المفاوضات فى شهر فبراير مع مدير البنك الدولى.

وحين قابلته قلت له بصراحة إن عندنا عقدة من القروض والفوائد، ولا يمكن أن نفصل هذا عن السياسة، وقد جرى إحتلال بلدنا بسبب الفوائد وبسبب القروض ولا يمكن أن ننسى، هذا التاريخ.

ولا يمكن أبداً أن نقبل أى مساس بكياننا.. وأنا لا أفهم لماذا تريدون أن تشرفوا على ميزانيتنا فهل معنى هذا أن ثقتكم معدومة بنا وهناك بلد بجوارنا فى الشمال فهل أنتم تشرفون على ميزانيته لأنه عقد اتفاقات معكم؟ وإذا كان إشرافكم حقيقة يصلح الميزانيات.. كنتم أصلحتم هذا البلد الذى تشرفون عليه.

وقلنا له إن تقرير البنك الدولى عن الاقتصاد المصرى يقول: إن هذا الاقتصاد سليم، وإن مصر تستطيع أن تتحمل نصيبها فى هذه المرحلة.

وقلت له إنه كان المفروض أن نبدأ فى يونيو الماضى أول مرحلة من مراحل المشروع، وكان هذا الكلام فى فبراير، وقلت له على هذا الأساس لا نستطيع أن نقرر البدء بالمشروع قبل أن نعرف ما هو الاتفاق النهائى.

بعد مفاوضات طويلة قال إنه لا يستطيع أن يوقع اتفاقاً نهائياً فى الوقت الحاضر؛ لأن هناك مسائل قانونية، وإلى أن يتم هذا الاتفاق فى مفاوضات المياه بين السودان ومصر.. وبعد أن نحل مسألة المياه يحضرون لتوقيع الاتفاق..

وقال إننا نستطيع أن نبدأ من اليوم فى تنفيذ المشروع معتمدين على السبعين مليون دولار الذى تدفعه أمريكا وإنجلترا.

وبعد هذا هل ستعطينا أمريكا وإنجلترا معونات أخرى غير هذا المبلغ؟!

كان المفروض أن يعطونا ٤٠ مليون دولار كل سنة، والآن يريدون أن يعطونا ٧٠ مليونا فى خمس سنوات!

وقالوا أيضاً إنهم لا يضمنون المستقبل ولا يستطيعون أن يعطونا أكثر من السبعين مليون دولار أو لا!

إذن ظهر الفخ الأمريكي.. أي أننا نأخذ ٧٠ مليونا ونبدأ بالمشروع، ونحن طبعاً متحمسون للسد العالي، وبدأنا فعلاً في إنشاء طرق، ومحطات وبناء بيوت للعمال، وبعد أن نمضي في المشروع ونصرف هذا المبلغ ونطلب من البنك الدولي أن يوقع العقد النهائي ليعطينا الـ ٢٠٠ مليون دولار، يفرض البنك الدولي شروطه!

وعندئذ نكون أمام أحد أمرين:

إما أن نرفض هذه الشروط، ويرفض البنك إعطاءنا القرض ثم نقف في وسط المشروع ونكون قد صرفنا ٣٠٠ مليون دولار هباء، ورميناها في البحر.

أو نضطر أن نرضخ ونستسلم ونرضى بشروط البنك الدولي بأن يرسل من قبله شخصاً يجلس مكان وزير المالية وآخر يجلس مكان وزير التجارة، وثالثاً يأخذ مكاني، وعلى هذا الأساس لا نعمل أي شيء إلا بعد أخذ التعليمات اللازمة منهم!

وقد قلنا لمدير البنك الدولي إننا قررنا ألا نبدأ العمل إلا بعد توقيع اتفاقية المياه مع السودان الشقيق، وبعد توقيع الاتفاق النهائي مع البنك الدولي، ومعرفة شروطه وقلنا إننا أعطينا الأوامر بإيقاف العمل في المشروع حتى لا ندخل في مغامرة ويتحكم فينا الاستعمار بسببها، ويحاول أن يستغلنا اقتصادياً ويسيطر علينا سياسيًا بعد أن فشل في أن يستغلنا سياسياً ويسيطر علينا سياسياً.

وبعد هذا قال مدير البنك الدولي، إننا مستعدون لتغيير الشروط، وإرسال جواب ليس به الكلام الذي تشتكون منه.

وقلت له هل تضمن لى أن يكون هذا الجواب هو الاتفاق النهائى، أم أن الجواب الذى سنبدأ على أساسه سيكون شيئًا آخر غير الاتفاق النهائى؟ فلم يضمن أن يكون الاتفاق النهائى مماثلاً للجواب. فطلبت منه أن نكتب الاتفاق الآن ونوقعه ونؤجله، إلى أن نمضى اتفاق المياه، فرفض وقال لا يمكن أن نمضى الاتفاق إلا بعد أن تتفقوا مع السودان وتحلوا مشكلة المياه وأنتم تستطيعون بدء تنفيذ المشروع الآن بأموالكم والـ ٧٠ مليون دولار وبعد هذا نبدأ المفاوضات لعقد القرض.

وطبعًا كانت هناك خدعة.. عملية توريط لنقع فى براثنهم ويتحكمون فينا عندما نستنزف أموالنا دون أن نأخذ أى نتيجة. وهنا.. قررنا ألا نبدأ فى السد إلا بعد معرفة كيف يمول السد، وبعد اتفاقية الماء ونعرف كيف ينتهى ولذلك أوقفنا كل العمل.

و.. فى فبراير أرسل إلينا مدير البنك الدولى جواباً لا قيمة له، قال إنه يدفع ٢٠٠ مليون دولار بعد حل مشكلة الماء.

ولم يكن فى الجواب ما يمس سيادتنا فقبلناه ولكن كانت هناك مذكرة الحكومة البريطانية ومذكرة الحكومة الأمريكية؛ وفيها ما يمس سيادتنا. ففى فبراير أبلغ السفيران الأمريكى والبريطانى عدم موافقتنا على هذه المذكرات، وراحت المذكرتان للحكومتين الأمريكية والبريطانية، وطبعاً لم يجئ أى رد.

وفى ٢٩ فبراير، كان الكلام أن بريطانيا تريد التوسط بيننا وبين السودان فجاء سلوين لويد وقابلنى فى منزلى، فعرض معاونته لحل مشاكل المياه بيننا وبين السودان. فقلت له إن تصرفاتكم تدل على أنكم تعقدون المسائل فجرائدكم وإذاعتكم تثير السودان ضد السد العالى، ذلك أن كلاً من محطة

الإذاعة البريطانية، ومحطة إذاعة الشرق الأدنى والصحف تذيع تعليقات للوقيعة بيننا وبين السودان.. وسفارتكم فى الخرطوم تجمع كل ذلك وتطبعه فى كتاب وتوزعه على السودانيين.

ومعنى هذا خلق عداء بين مصر والسودان فكيف يستقيم هذا مع عرضك لأن تكون وسيطاً بين مصر والسودان؟.

كان الواضح أن الإنجليز يحاولون بث روح الكراهية فى إخواننا السودانيين ويهمهم أن ينفذوا لإثارة أحدنا ضد الآخر. وفى نفس الوقت وقف اللورد كيلرن فى مجلس اللوردات وقال كيف تمنح مصر ٥ ملايين جنيه وغير ذلك من كلام فى منتهى البذاءة من لورد كيلرن وهو معروف!!

وفى يوم ١٤ مارس قابلت السفير البريطانى فى المنزل، وقلت له إننا شعب عاطفى، فالكلمة الحلوة أفضل من مليون دولار، ونحن لسنا دولة غنية جداً ولكننا نستطيع توفير الملايين حتى ولو دقينا زلط أو كسرنا طوب فنحن قبلنا المعونة منعاً لأن يقال إن مصر ترفض علاقة حسنة معكم ولكن إذا تكرر هذ الكلام فسوف نرفض المعونة.

وسار الحال على هذا ثم لم ترد الحكومتان الأمريكية والبريطانية على المذكرتين.

وبعد ذلك تم طرد جلوب من الأردن، وجرى ضرب «سلوين لويد» بالطوب فى البحرين، وقيل إن هذا نتيجة للسياسة المصرية.. وبدأت حملة شنيعة من أول مارس فى الصحافة البريطانية ضد مصر، لدرجة أن رجلاً اسمه «فريزر» قال لابد من بناء سد فى كينيا يمنع الماء عن مصر وهذا يدل

على عدوانية هؤلاء الناس وقالوا إننا نهددهم فى البترول ولكنى قلت إنه ليس لنا أى دخل فى المصالح المشروعة لأحد ولكننا نقاوم ما يسمونه بالنفوذ فإنه لا يمكن أن نكون منطقة نفوذ لأحد. مصالحكم الاقتصادية المشروعة ليس لنا اعتراض عليها.

وفى يونيو ١٩٥٦ تقررت زيارة وزير خارجية روسيا «مسيو شيبيلوف» إلى مصر وفى نفس الوقت بعث مدير البنك الدولى قال: إنه يريد المجىء فقلنا اتفضل.. وعندما جاء الوزير الروسى جرت بيننا محادثات وعرض مساعدة روسيا لمصر فى جميع الميادين إلى درجة إعطاء قروض طويلة الأجل وقال إن ذلك دون قيد ولا شرط، وعلينا أن نطلب منهم ولأنهم لا يريدون مواد خام وقال أيضاً أنهم لا يريدون أن يوقعوا بيننا وبين الدول الغربية. فالروس يعملون الآن على كسر حدة التوتر فى العالم ويهمهم أن تكون السياسة بين مصر والغرب طيبة فشكرته وأجلت الكلام فى التفاصيل لحين زيارتى فى شهر أغسطس. تانى يوم حضر مدير البنك الدولى.. وقابلنى فى البيت الساعة ١٠ وأكد أن البنك عند وعده الذى قاله فى شهر فبراير، وأنه مصمم على تمويل هذا المشروع، وإن الحكومة الأمريكية والحكومة البريطانية عند هذا الوعد، وقلت إننا أيضاً عند كلمتنا.

هذا ما حدث حتى حوالى ٢٠ يونيو الماضى. والتقى سفيرنا فى أمريكا مع وزير الخارجية الأمريكى فوستر دالاس.. ثم جاء للقاهرة وقال لى إن الأمريكان يعتقدون أننا لا نريدهم أن يمولوا المشروع فقلت له بالعكس.. إننا عاوزين نتكلم ونتفاوض لتمويل المشروع.

وعاد سفيرنا الدكتور أحمد حسين إلى واشنطن على أن يقابل «دالاس» ويطلب إرسال الرد على المذكرات التى بعتناها، وبعد يومين أعلنت الحكومة الأمريكية بيانها وقد قلت رأيى فيه أول أمس.

وفى بيـان أمـريكا حـاولوا إثارة إثيـوبيـا وأوغندا، ضـدنا لأنه همـهم أن تخـتلف الدول فى هذه المنطقة فتلجأ إلى المساعـدة من أمريكا فيحـصل التحكم فى هذه المنطقة.

ولقـد أبلغـتـهم أننا لا نريد وساطتـهم مـع السودان لأننا متـفـاهمـون مع إخواننا السودانيين، فالرئيس إسماعيل الأزهرى كان على استعداد للتفاهم معنا وكذلك وزير الخارجيـة ميرغنى حمزة تكلم معى ولم يكن هناك شد وجذب ولم يكن هناك خلاف ولما جاء عبد الله خليل رئيس الوزارة الحالى كانت روحه طيبة جداً فلا داعى إذن لتدخل وتوسط الأمريكان والإنجليز.

لكن وزارة الخارجيـة تقول مصالح السودان ومصر.. ولا أدرى مـا دخل أمريكا فى مـصالح البلدين فمصر والسودان مرتبطان ببعضهما البعض منذ بدء الخليقة ولا يمكن أن تنضم دولة منهما إلى أمريكا الشمالية أو الجنوبية، ولكن حب الوصـايـة، والتـحكم، والسـيطرة، وخلق المنازعـات هى التى فرضت عليهم ذلك.

وقال البيان أيضاً إن التطورات التى شـهدتها الشـهور السبعة غير مـلائمة لتنفيذ المشروع. فما هذه التطورات هل هى اقتصادية أو سياسية؟

وفى البـيـان الأمريكى أيضًا شىء غريب فـوزير الخـارجيـة الأمـريكى يخـاطب الشـعب المصـرى ويقـول إن هذا لا دخل له بصـلات الشـعب الأمريكى بالشعب المصرى أى أن هذا ضد جمال عبدالناصر فقط.

ها هى التطورات. يشككون فى الاقـتصـاد المصـرى والإنتـاج المصـرى رغم أنه ينمو ويزداد وقد جاء فى كتاب الإحصاء السنوى للأمم المتحدة أن الدخل المصرى زاد من ٧٤٨ مليون جنيه سنة ٥٢ إلى ٧٨٠ سنة ٥٣، إلى

٨٦٨ سنة ٥٤. أى أننا نعمل وننتج ودخلنا القومى زاد أى أن دخلنا زاد ١٢٠ مليون جنيه فى سنتين. كما أن مجموع الدخل الزراعى فى سنة ٥٤/٥٥ بلغ ٤٢٠ مليون جنيه بعد أن كان ٣٨٢ مليون جنيه أى بمعدل ١٥ ٪ وسجل الإنتاج الصناعى فى عام ١٩٥٥ مبلغًا يتراوح بين ١٥ إلى ٢٠ ٪ وقلت ذلك فى خطبتى التى ألقيتها فى مؤتمر التعاون.

* * *

إن التطورات التى حدثت هى تطورات عزة، تطورات استقلال وعزة وكرامة فقد بنينا سداً للعزة والكرامة سداً ضد الأطماع. التطورات إننا صممنا أن تكون لنا شخصية مستقلة وجيش قوى وحرية. فما الغرض من ذلك وهل يعاقبون مصر لأنها رفضت أن تقف بجوار التكتلات العسكرية؟ لقد نادت مصر بالسلام وتحقيق حقوق الإنسان.

مصر نادت بالمبادئ التى قرروها فى الأمم المتحدة ثم نسوها.. الحرية ـ حق تقرير المصير ـ القضاء على الاستعمار ـ التعايش السلمى ـ عدم الانحياز ـ نعادى من يعادينا ونسالم من يسالمنا.

لكن كيف لا نأخذ أوامرنا من الكونجرس الأمريكى؟ فقد وقف أحد أعضائه يطلب قطع المعونة عنا!.

إنهم يعاقبوننا بقطع الـ٧٠ مليون دولار على خمس سنوات، يعاقبوننا بتعطيل رفع مستوانا ويقولون فى جرائدهم: إن الشعب المصرى يعرف أن جمال عبدالناصر ضده، ولا يعرفون أننى أرفض لأن الشعب المصرى لا يوافق على طلباتهم!

ولما قررنا تأجيل مشروع السد العالى، تكلموا هم وطلبوا التنفيذ.. وعندما وصل «بلاك» مدير البنك قال إننا بنك دولى وليس بنكاً سياسيًا، وليس لى

دعوة بأمريكا ولا أقول إلا الرأى الذى أؤمن به. فقلت له إن مجلس الإدارة يكون من الدول فهو على هذا الأساس بنك سياسى وكنت أنظر إلى «مستر بلاك»، وأتصور أن الذى يجلس أمامى «فرديناند ديلسيس»، وعادت بى الذاكرة إلى الكلام الذى قرأناه ففى عام ١٨٥٤م. عندما وصل إلى مصر وذهب إلى الخديو، وقال له: نريد حفر قنال السويس، الذى سيفيدك وهو مشروع ضخم سيضيف لمصر الكثير. وكلما كان يوجين بلاك يتكلم.. كنت أشعر بالعقد فى كلامه ويعود بى التفكير إلى «فردیناند دیلیسبس». وقلت له إننا لا نريد أن نعيد كرومر آخر إلى مصر فأرجوك فى كلامك معى أن تضع هذا الاعتبار فى نفسك، لدينا عقدة من كرومر ـ من ديليسبس ـ هذه هى صورة «ديليسبس» حينما وصل إلى مصر فى ٧ نوفمبر سنة ١٨٥٤م، جاء إلى الإسكندرية، وبدأ يعمل فى ٣٠ نوفمبر سنة ١٨٥٤م. بعد اتصاله بالخديو محمد سعيد وحصوله على امتياز القنال وفى صدر الامتياز قال: «حيث إن صديقنا «ديليسبس» لفت نظرنا إلى الفوائد التى تعود على مصر من اتصال البحرين وأخبرنا عن تكوين شركة من أصحاب رءوس الأموال، أعطينا التفويض بحفر القناة».

هذا كان سنة ١٨٥٤ منذ مائة سنة بالضبط وتكونت الشركة، وأخذت منها مصر ٤٤٪ من الأسهم والتزمت بالتزامات للشركة وتعهدت بتقديم ١٢٠ ألف عامل ماتوا فى حفر القناة.. نعم.. لقد حفرنا القناة بجماجمنا وعظامنا ودمائنا.. ودفعنا تعويضات وكان المفروض أن نأخذ ١٥٪ من الأرباح فوق ٤٤٪ من الأسهم، فتنازلنا عنها بسبب الديون والمؤامرات. وبعد أن كانت القناة محفورة لمصر أصبحت مصر ملكاً للقناة.

هل خضعت القناة لقوانين البلاد وعرفها؟ كلا بل إنها تعتبر نفسها دولة داخل الدولة وبسببها حدث احتلال مصر سنة ١٨٨٢. وأدينت مصر

واضطرت إلى بيع نصيبها الـ ٤٤ ٪، فاشترتها إنجلترا بمبلغ ٤ ملايين جنيه. وتنازل إسماعيل أيضًا عن الأرباح. أى.. إن إنجلترا حصلت مجاناً على ٤٤ ٪ من الأسهم.

هل يعيد التاريخ نفسه بالخداع والتضليل؟! وهل يكون الاستقلال الاقتصادى والتحكم الاقتصادى سبباً فى القضاء على حريتنا السياسية.. لا يمكن مطلقًا ـ أيها الأخوة ـ نحن لا نكرر الماضى. نحن نبنى بلدنا بناء سليمًا جديداً ونتجه للقضاء على آثار الماضى البغيض التى حدثت رغمًا عنا خداعاً وتضليلاً.

قناة السويس التى ضحينا فيها قناة مصرية شركة مصرية، اغتصبت بريطانيا حقنا فيها وما زالت بريطانيا من وقت افتتاح القناة تتلقى الفوائد والجميع يأخذون ومع ذلك فهى شركة مساهمة مصرية.. إن دخل القناة ٣٥ مليون جنيه أى ١٠٠ مليون دولار.. تأخذ منها مصر التى مات من أبنائها ١٢٠ ألف عامل: مليون جنيه أى ٣ ملايين دولار فقط.

إن الشركة التى قامت حسب الفرمان من أجل مصلحة مصر يذهب إيرادها إلى الخارج! إن العيب أن نسمح بامتصاص دماء الشعوب. ولهذا فإننا لن نكرر الماضى أبداً ولكن سنستعيد حقوقنا فى قناة السويس.

إن هذه القناة ملك لمصر فهى شركة مساهمة مصرية حفرت بواسطة المصريين ١٢٠ ألف مصرى ماتوا أثناء حفرها.. هذه الشركة التى مقرها فى باريس مغتصبة مثل «ديلسبس».. ولهذا سنبنى السد العالى، وسنحصل على حقوقنا، سنبنيه كما نريد، وسنصمم على هذا وإيراد القناة ٣٥ مليون جنيه كل عام تأخذها شركة القناة سنأخذها نحن.

١٠٠ مليون دولار تحصلها القناة كل سنة نحصلها لمنفعة مصر.. ولهذا.. ونحن اليوم حينما نبنى السد العالى نبنى أيضًا سد العزة والحرية

والكرامة، ونقضى على سدود الذل والهوان، ونعلن مصر كلها جبهة واحدة.. كتلة وطنية.. متكاتفة.. متحدة.. ستقاتل لآخر قطرة من دمائها كصلاح مصطفى ومصطفى حافظ فى سبيل بناء بلدنا.. سنعتمد على سواعدنا وعلى دمائنا.. فنحن أغنياء وإذا كنا متهاونين فى حقوقنا فسنسترد هذه الحقوق خطوة خطوة، وسنبنى مصر القوية، مصر العربية. وقد وقعت اليوم، ووافقت الحكومة على القانون الآتى: «نص القرار بعد هذه الصفحات».

* * *

إننا لن نمكن منا المستعمرين أو المستبدين لن نقبل أن يعيد التاريخ نفسه مرة أخرى.. سنبنى مصر بناءً قوياً متيناً ونتجه إلى الأمام نحو استقلال سياسى واستقلال اقتصادى.. ونحو اقتصاد قومى من أجل الشعب.. وإذا التفتنا إلى الخلف فلنهدم آثار الماضى آثار الاستعباد، والاستغلال، والسيطرة.

واليوم وقد عادت الحقوق إلى أصحابها بعد مائة سنة، اليوم إنما نحقق التحرر الحقيقى.. لقد كانت قناة السويس دولة فى داخل الدولة، تعتمد على مؤامرات الاستعمار وأعوان الاستعمار. لقد بنيت القناة من أجل مصر ولكنها كانت منبعًا للاستغلال وليس عيبًا أن أكون فقيراً ولكن العيب هو امتصاص الدماء..

اليوم نستعيد هذه الحقوق، وأقول باسم شعب مصر: إننا نحافظ على هذه الحقوق ودونها أرواحنا ودمائنا..

وقد كانت قناة السويس صرحًا من صروح الاستبداد، واليوم فإن هذه أموالنا ردت إلينا .. هذه حقوقنا عادت إلينا.

ان دخل قناة السويس ٣٥ مليون جنيه فى السنة أى ١٠٠ مليون دولار، وعلى ذلك فلن ننظر إلى المعونة الأمريكية التى كانت ٧٠ مليونا فقط.

اليوم بعرقنا.. ودموعنا.. وأرواح شهدائنا وجماجمهم؛ نستطيع أن نحمى هذا البلد، سنعمل وننتج ونزيد فى الإنتاج، برغم كل هذه المؤامرات وكل ما يصدر من كلام من واشنطن سأقول لهم موتوا بغيظكم.. فهم لا يريدون أن نكون دولة صناعية؛ حتى لا تبور تجارتهم عندنا.

لم أر معونة أمريكية متجهة إلى التصنيع ولكن كل معونة متجهة إلى الاستغلال نحن نشعر اليوم أننا أصلب عوداً وأشد عزمًا وقوة وإيماناً، اليوم نشعر مع استعادة القناة ـ كما طردنا فاروق ـ إننا نحقق أمجاداً لمصر..

سنتجه قدمًا إلى الأمام شعباً واحداً يؤمن بنفسه، ويؤمن بوطنه، ويؤمن بقوته.. شعباً واحداً آل على نفسه أن يعمل.. أن يعمل ويزحف زحفًا مقدساً نحو البناء، ونحو التصنيع، ونحو الإنشاء.. شعبًا واحداً.. كتلة واحدة متراصة تقف ضد الغدر والعدوان.. تقف ضد الاستعمار وأعوان الاستعمار وألاعيب الاستعمار.

إننا بهذا ـ أيها المواطنون ـ سنستطيع أن نحقق الكثير، سنشعر بعزة، وسنشعر بالكرامة، وسنشعر بأننا نبنى وطننا بناء حقيقيًا زى ما احنا عايزين.. نبنى اللى احنا عايزينه، ونعمل اللى احنا عايزينه، ليس لنا شريك، وحينما نسترد حقوقنا المغتصبة سنزداد قوة وسيزداد إنتاجنا وعملنا.

والآن أيها المواطنون يتجه إخوة لكم من أبناء مصر لإدارة القنال، الآن فى هذه اللحظة يتسلمون شركة القناة المصرية ويديرون ملاحتها وهى جزء من مصر.. إننا نقوم بهذا العمل لنستعوض الماضى، ونبنى العزة والكرامة وفقكم الله. والسلام عليكم ورحمة الله.

• القرار التاريخى
بتأميم قناة السويس

«قرار من رئيس الجمهورية بتأميم الشركة العالمية لقنال السويس البحرية».

باسم الأمة..

رئيس الجمهورية

مـــادة ١ : تؤمم الشركة العالمية لقناة السويس البحرية شركة مساهمة مصرية، وينتقل إلى الدولة جميع ما لها من أموال وحقوق وما عليها من التزامات، وتحل جميع الهيئات واللجان القائمة حاليًا على إداراتها، ويعوض المساهمون وحملة حصص التأسيس عما يملكونه من أسهم وحصص بقيمتها، مقدرة بحسب سعر الإقفال السابق على تاريخ العمل بهذا القانون فى بورصة الأوراق المالية بباريس، ويتم دفع هذا التعويض بعد إتمام استلام الدولة لجميع أموال وممتلكات الشركة المؤممة.

مادة ٢ : يتولى إدارة مرفق المرور بقناة السويس مرفق عام ملك للدولة.. هيئة مستقلة تكون لها الشخصية الاعتبارية، وتلحق بوزارة التجارة،

ويصدر بتشكيل هذه الهيئة قرار من رئيس الجمهورية، ويكون لها ـ فى سبيل إدارة المرفق ـ جميع السلطات اللازمة لهذا الغرض، دون التقيد بالنظم والأوضاع الحكومية.

ومع عدم الإخلال برقابة ديوان المحاسبة على الحساب الختامى، يكون للهيئة ميزانية مستقلة، يتبع فى وضعها القواعد المعمول بها فى المشروعات التجارية، وتبدأ السنة المالية فى أول يوليو، وتنتهى فى آخر يونيو من كل عام، وتعتمد الميزانية والحساب الختامى بقرار من رئيس الجمهورية. وتبدأ السنة المالية الأولى من تاريخ العمل بهذا القانون وتنتهى فى آخر يونيو سنة ١٩٥٧. ويجوز للهيئة أن تندب من بين أعضائها واحداً أو أكثر لتنفيذ قراراتها أو للقيام بما تعهد إليه من أعمال، كما يجوز لها أن تؤلف من بين أعضائها أو من غيرهم لجاناً فنية؛ للاستعانة بها فى البحوث والدراسات. يمثل الهيئة رئيسها أمام الهيئات القضائية والحكومية وغيرها، وينوب عنها فى معاملتها مع الغير.

مادة ٣ : تجمد أموال الشركة المؤممة وحقوقها فى جمهورية مصر وفى الخارج، ويحظر على البنوك والهيئات والأفراد التصرف فى تلك الأموال بأى وجه من الوجوه أو صرف أى مبالغ أو أداء أية متطلبات أو مستحقات عليها إلا بقرار من الهيئة المنصوص عليها فى المادة الثانية.

مادة ٤ : تحتفظ الهيئة بجميع موظفى الشركة المؤممة ومستخدميها وعمالها الحاليين، وعليهم الاستمرار فى أداء أعمالهم، ولا يجوز لأى منهم ترك عمله أو التخلى عنه بأى وجه من الوجوه، أو لأى سبب من الأسباب؛ إلا بإذن من الهيئة المنصوص عليها فى المادة الثانية.

مادة ٥ : كل مخالفة لأحكام المادة الثالثة يعاقب مرتكبها بالسجن والغرامة

توازى ثلاثة أمثال قيمة المال موضوع المخالفة. وكل مخالفة، لأحكام المادة الرابعة يعاقب مرتكبها بالسجن، فضلاً عن حرمانه من أى حق فى المكافأة أو المعاش أو التعويض.

مادة ٦ : ينشر هذا القرار فى الجريدة الرسمية، ويكون له قوة القانون، ويعمل به من تاريخ نشره، ولوزير التجارة إصدار القرارات اللازمة لتنفيذه.

«صدر فى القاهرة ٢٦ يوليو ١٩٥٦».

• المشهد التاريخي في يوم التأميم

دفعت مصر ثمناً غالياً فى قناة السويس عبر سلسلة من المعارك المتصلة بغير انقطاع بدءاً من معركة حفر المجرى التى حصدت أرواح مائة وعشرين ألف شهيد تولوا الحفر والبناء بالفئوس والمعدات البدائية.. والتى استدانت خلالها حكومة الخديوى وما ترتب على هذا من تولى الإنجليز والفرنسيين إدارة الشئون المالية والاقتصادية لمصر وإعطاء الأجانب مزايا متعددة.. إلى قدوم الاحتلال وصراع القوى الغربية على من يسيطر، واتفاقها على قهر المصريين.. إلى غير ذلك من المعارك، حيث كانت شركة قناة السويس البحرية معقلاً مهمًا من معاقل النفوذ، فشكلت دولة داخل الدولة يشعر المواطنون إزاءها أنهم غرباء فى بلدهم.. حتى كان المشهد التاريخى لتأميم القناة فى معركة ماهرة اتسمت بالدقة والمهارة وغلفتها السرية وتخللتها مؤامرات معلنة وخفية حتى كللت بالنجاح.. والانتصار.

لقد توقف التاريخ ليرى ويسمع ويراقب أحداثاً بالغة الأهمية قام بها شعب عريق وتولى أمرها حفنة رجال صنعوا المجد.

وكان المهندس محمد عزت عادل واحداً من هؤلاء الرجال.. أحد ثلاثة كانوا أول من عرفوا بالقرار قبل إعلانه، وهم: المهندس محمود يونس ـ الذى تولى القيادة العامة للعملية بسلطات رئيس الجمهورية ـ والمهندس عبدالحميد أبو بكر (رحمه الله) ـ والمهندس محمد عزت عادل الذى استضفناه فى هذه «الندوة للأهرام» لنتحاور معه.. لتنتعش ذاكرة الوطن بتفاصيل أحداث تلك الأيام بما لها من دلالات مهمة ومفاهيم لها مغزاها ودروس لها قيمتها.

وإذ نقدم لهذا الحوار فإننا نجد أنفسنا فى تلامس مباشر مع قطعة حية من التاريخ الملحمى للشعب والوطن.. ونستشعر الرغبة فى تكرار قراءته.. ومعرفة المزيد منه.. وضرورة أن يكون هذا معروفًا لكل فرد فى مصر والأمة العربية وعلى اتساع المجتمع الإنسانى.

● **محمود مراد:** إن عملية تأميم قناة السويس تعد فصلاً مهماً من كتاب أمجاد هذا الوطن، ومن المفيد أن ندرسها ونتعرف عليها وننعش ذاكرتنا بما جرى دعماً لمسيرتنا وسنداً لما يمكن أن نقدم عليه ولتعرف الأجيال أن فى هذا البلد رجالا يصنعون المجد.. وأحد هؤلاء الرجال هو المهندس محمد عزت عادل الذى كان واحداً من ثلاثة رجال عرفوا بقرار التأميم قبل إعلانه رسمياً ورتبوا لتنفيذ القرار ثم باشروا الإجراءات العملية ليصبح واقعاً فى معركة دقيقة لم يكن مسموحاً فيها بوقوع خطأ مهما تضاءلت نسبته.. ومن الضرورى أن نستمع إلى شهادة الرجل الذى شارك فى كل هذا واستمر شريكاً فى المسئولية حتى أنه تولى رئاسة مجلس إدارة هيئة القناة ولا يزال بعد إحالته إلى التقاعد متابعاً أعمالها.. ولهذا تمثل شهادته قطعة حية من تاريخنا المعاصر.. ترى متى اتصل بعلمك خبر التأميم وكيف جرت العملية من وجهة نظرك؟

● **المهندس محمد عزت عادل**: إننى بالطبع لا أستطيع الحديث عن فكر جمال عبدالناصر ـ رحمه الله ـ ومتى اتجه إلى تأميم قناة السويس.. لكن كلنا نعرف أن البنك الدولى قد تقاعس عن تمويل مشروع السد العالى وأعلن هذا فى يوليو ١٩٥٦ .. فهل كان هذا دافعاً إلى فكرة التأميم؟.. أم أن هناك أسباباً أخرى دفعت عبدالناصر إلى هذا قبل انتهاء فترة الامتياز ـ ١٩٦٨ ـ رغم ما قد يترتب على هذا من مشكلات؟. وفى اعتقادى شخصياً فإنه إلى جانب فائدة التأميم فى توفير التمويل لبناء السد.. فإن هناك سبباً آخر لا يقل أهمية وهو إن أحوال وأوضاع قناة السويس كان يحتم ضرورة التأميم، وقد لمست هذا بنفسى عملياً وبالوثائق بعد ذلك.. فإنه إذا افترضنا جدلاً أن مصر لم تتخذ قرار التأميم وظلت شركة القناة كما هى.. فإنه بعد انتهاء فترة الامتياز ـ عام ١٩٦٨ ـ لم يكن ممكناً أن نقدر على إدارة القناة ومن ثم كانت ستفشل وبالتالى كانت الدول ستتدخل وتجبر مصر على إعادة الشركة لقيادة وإدارة القناة.. لماذا؟

السبب أن الأوضاع فى شركة القناة كانت فى اليوم السابق للتأميم مترديه متدهورة تماماً.. فإنه:

بالنسبة للعاملين كانت الأغلبية لمن يتولون المناصب العليا والمهمة والحساسة من الأجانب وبالذات من الفرنسيين.. وإذا نظرنا إلى المرشدين الذين يتولون إرشاد السفن أثناء عبورها من البحر المتوسط وعبر القناة إلى البحر الأحمر.. وبالعكس، نجد أن عددهم مائة وثمانون مرشداً ليس بينهم سوى ثلاثين مصرياً وهؤلاء المصريون كانوا فيما عدا خمسة أو.. ستة، من الدرجة الثانية، ولم يكن يوجد فى إدارات وأفرع القناة مصرى واحد فى موقع اتخاذ القرار..

وبالنسبة للمعدات التى تخدم الملاحة فى القناة مثل الكراكات والقاطرات والأوناش العائمة وغيرها وغيرها من المعدات الثقيلة والخفيفة.. كانت متهالكة وقديمة.. وهنا لابد أن نتذكر أن شركة قناة السويس المؤممة كانت قد حاولت أكثر من مرة مد امتياز القناة دون جدوى ولذا فعندما تبين لها أن مد الامتياز مستحيل.. أعلنت ـ وهذا موثق ـ أنها شركة تستهدف الربح وأنها لن تقوم بتطوير المجرى الملاحى أو المعدات أو الأفراد.

إذن.. فهل كانت مصر ستنتظر ١٢ سنة حتى ينتهى الامتياز.. فتجد الشركة خراباً، كما حدث قبل ذلك عندما استلمت شركات: الترام والكهرباء وليبون للغاز وغيرها.. ووجدت أنها تسلمت «كهنة» ولا توجد استعدادات وكوادر بشرية لإدارتها؟

هكذا.. فإن مصر كانت ستتسلم القناة بعد انتهاء الامتياز..فى حالة صعبة للغاية تؤدى إلى فشلها..

وإننى أعتقد أن هذا سبب مهم من أسباب التأميم ـ قبل أن تقع الواقعة ـ ولكى تتمكن مصر من إدارة القناة قبل انهيارها..

● **محمود مراد:** ماذا كانت حصة مصر من إيراد القناة قبل التأميم؟

● **المهندس محمد عزت عادل:** كانت حصة مصر نحو ثلاثة ملايين جنيه أى نحو عشرة فى المائة من الإيراد الإجمالى وقتها..

● **محمود مراد:** إن هذا أيضاً سبب إضافى للتأميم.. وبالمناسبة فإن فكرة التأميم لم يكن ممكناً أن تقفز إلى رأس جمال عبدالناصر عند رفض البنك الدولى تمويل بناء السد ـ قبل تنفيذ قرار التأميم ـ بنحو أسبوع فقط.. فإن قراراً من هذا لا يمكن دراسته بكل تداعياته واتخاذه فى هذه الفترة

القليلة وإنما كان عبدالناصر يدرسها على مهل وبكل دقة قبلها بنحو عامين.. وهذا استكمالا لعمليات التمصير مثل تمصير البنوك قبلها، بل إنه طلب بشكل غير مباشر أن تهتم الصحافة بالقناة وتكتب عنها.. وأعد فى مكتب مختص بمؤسسة الرئاسة ملفًا كاملاً لها.. وكانت فكرة التأميم فى ذهنه للأسباب التى ذكرها المهندس محمد عزت عادل ولغيرها خصوصاً وأن فكرة مد الامتياز كانت مرفوضة من الشعب المصرى ومنذ ما قبل الثورة لكنه فقط كان يتحين اختيار التوقيت المناسب.. إلى أن جاء رفض تمويل السد بطريقة مهينة لمصر.. فكان القرار رداً على الإهانة بما تستحق!

● **السفير سامح ضرار:** قرأت إحصائية فى «الأهرام» إن القناة حققت فى شهر مايو الماضى إيراداً بلغ ٣٢٤,٦ مليون دولار وهذا أعلى إيراد منذ افتتاحها.. وفى العام الماضى كله حققت إيراداً غير مسبوق وهو ثلاثة مليارات ومائتان وتسعون مليون دولار بزيادة ١٦٪ عن العام قبل الماضى.. وسؤالى هو إنه فى إطار الحرب على القناة فإن الغرب يحاول الاستغناء عنها بالناقلات العملاقة التى لا تتحملها القناة.. فما جدوى هذه الحملة.. وهل يمكن للقناة أن تستوعب مثل هذه الناقلات التى تحتاج إلى غاطس عميق؟

● **المهندس محمد عزت عادل:** إن أسطول السفن العالمى مقسم إلى ثلاثة مستويات أو.. ثلاثة أنواع:

أولا: سفن البضائع الجافة.. والتى تندرج تحتها: الحاويات.

ثانيًا: سفن الكميات الضخمة.. مثل التى تحمل: الفحم ـ القمح ـ الأسمنت ـ خام الحديد.. وأمثالها..

ثالثًا: سفن ناقلات البترول.. والغاز.. والمنتجات البترولية.

وبالنسبة للنوع الأول.. فإن قناة السويس تستوعبها بنسبة ١٠٠٪.. وحاليًا فإن سفن الحاويات ـ التى تدخل فى هذا النوع ـ تعد أهم «زبون» لقناة السويس من حيث حجم الإيرادات.. فإن كل الحاويات تستطيع وبسهولة عبور القناة بما فى ذلك الأنواع الضخمة التى يصنعونها أو يصممونها الآن..

وبالنسبة للنوع الثانى فإن نسبة كبيرة من هذه السفن تستطيع عبور القناة.. والنسبة القليلة التى لا تستطيع، يمكنها العبور مخفضة ـ أى فارغة ـ..

أما بالنسبة للنوع الثالث فإن ناقلات البترول تنقسم عدة أقسام.. منها قسم يحمل البضاعة النظيفة مثل البنزين والسولار وهكذا.. وهى كلها تستطيع عبور القناة. ومنها قسم ناقلات الغاز وهى أيضاً يمكنها العبور.. ويبقى القسم الثالث وهو يضم ناقلات البترول الخام.. وقد جرى تصميم ناقلة تحمل أكثر من نصف مليون طن.. وقد عبرت القناة منذ أكثر من عشر سنوات وهى فارغة.. ولكن الشركات العالمية قررت العدول عن بناء هذه الناقلات العملاقة بعد حادث وقع لإحداها فى خليج المكسيك وتسرب البترول ودفعت شركة «إكسو» للبترول مليارات الدولارات تعويضاً عن الأضرار الناجمة.ورأت الشركات أن تكتفى ببناء ناقلات بحمولة ٣٢٠ ألف طن وهذه لا تستطيع عبور القناة بكامل حمولتها وإنما يمكنها العبور وهى فارغة وهى متجهة للشحن..

ولعلنى هنا أذكر أن الرسوم التى كانت تدفعها ناقلات البترول كانت تمثل نحو ٧٥٪ من إيرادات القناة حتى السبعينيات من القرن العشرين أما الآن فإنه بتطور سفن البضائع والحاويات تغيرت النسبة..

وبالمناسبة فإننى أرى أن مصر ينبغى أن تهتم بالنقل سواء عبر القناة أو.. خط سوميد أو.. الطرق البرية وغيرها.. لمضاعفة إيراداتها استثماراً لموقع مصر بين القارات ومناطق الإنتاج والاستهلاك.. وأرى التنسيق بين المسئولين عن هذه المرافق..

معركة الخمسين ساعة

● **محمود مراد:** عودة إلى مشهد التأميم وأحداثه فى يوليو ١٩٥٦.. فماذا حدث منذ البداية.. وكيف واجهتم الصعوبات التى تحدثتم عنها مضافًا إليها.. إنكم خلعتم الإدارة القديمة.. وتوليتم المسئولية بكوادر جديدة؟

● **المهندس محمد عزت عادل:** كانت الصعوبات بالغة.. والمشاق عديدة.. وبالنسبة لى.. فقد علمت بقرار التأميم قبل إعلانه بنحو خمسين ساعة.. وكان ذلك يوم ٢٤ يوليو ١٩٥٦. قبلها بيوم واحد.. كنا ـ المهندس محمود يونس رئيس هيئة البترول وقتها والمهندس عبدالحميد أبو بكر وأنا ـ الذين نعمل فى الهيئة ـ نحضر احتفال خط أنابيب من السويس إلى مسطرد ـ حيث كان الحفل ـ بحضور الرئيس جمال عبدالناصر.. وخلال الاحتفال أشار عبدالناصر إلى محمود يونس فاتجه إليه وتبادلا حديثًا هامسًا.. وبعد انتهاء الحفل عدنا إلى الهيئة فى مقرها بجاردن سيتى، وعلى غير العادة غادر محمود يونس مكتبه دون أن يعلن عن وجهته وغاب نحو ساعة ثم عاد شارد الذهن فى حالة من التفكير العميق.. ولم يتحدث مع أحد.. دعانى أنا والمهندس عبدالحميد أبوبكر واصطحبنا فى سيارته يطوف بشوارع القاهرة دون أن يتحدث إلينا عما يشغله.. فبدأنا نداعبه ونقول له إنه وحيد فى القاهرة لوجود أسرته فى المصيف

بالإسكندرية.. لكنا كنا نريد العودة إلى منازلنا للغداء.. فضحك .. وبعد جولة قصيرة اتجه بكل منا إلى منزله على أن نلتقى فى مكتبه فى اليوم التالى وشدد على هذا..

وبالفعل فى اليوم التالى ـ ٢٤/ ٧ ـ جاء إلى مكتبه صباحًا.. وهو فى نفس حالة الشرود.. وظل فى مكتبه وحيداً، ثم فى العاشرة صباحاً خرج لنحو ساعة. وعاد ليدعونا ـ عبدالحميد أبو بكر وأنا ـ إلى مكتبه.. وفوجئنا به بعد أن دخلنا يغلق باب المكتب ـ من الداخل ـ بالمفتاح.. وتبادلنا نظرة حيرة!

وجلس محمود يونس إلى مكتبه ليلقى لنا بالخبر المفاجئ.. «لقد كلفنى الرئيس جمال عبدالناصر بتأميم قناة السويس.. ولقد استأذنته أمس ـ فى احتفال مسطرد ـ أن أبلغكما للمشاركة معى.. فوافق على أن يكون هذا فى أضيق الحدود لأن العملية فى غاية السرية.

وعندما سمعنا هذا.. شعرنا كما لو أن زلزالاً قد حدث!! فنحن نعلم ما هى قناة السويس بتاريخها وأهميتها واستراتيجيتها.. والحروب التى نشبت بسببها. فكيف سيكون التأميم وماذا يحدث إذا ـ لا قدر الله ـ وفشلنا.. إن النتائج ستكون خطيرة وربما ينتج منها أن تفقد مصر.. قناتها إلى الأبد!

كان الخبر بالنسبة لنا مهولاً. وزاد من الهول أنه أبلغنا أن عبدالناصر سيعلن قرار التأميم بعد غد فى خطاب بميدان المنشية بالإسكندرية وأننا لحظتها سنكون قد بدأنا التنفيذ..

هكذا.. وبهذه السرعة سيحدث كل شيء.. لكن كيف؟

أقول لكم وبحق.. أنه أولاً وأخيراً توفيق من عند الله سبحانه..

وكانت البداية بتوفيقه سبحانه هى أننا قررنا ـ فى نفس هذا اللقاء ـ اختيار مجموعة التأميم التى ستقوم بالجهد الرئيسى فى العملية.. وقبل ترشيح الأسماء قال لنا المهندس محمود يونس إن الترشيح يجب أن يحظى بموافقتنا نحن الثلاثة ـ هو وأبو بكر وأنا ـ وإذا اعترض واحد فقط منا نلغى الترشيح.. وحسب هذا اخترنا سبعة وعشرين شخصاً. وراعينا فى الاختيار ـ وهذا عنصر هام ـ الدقة.. وكان طبيعيًا أن نختار أشخاصًا نعرفهم شخصياً أو.. من خلال احتكاك العمل أو.. لتخصصاتهم وسمعتهم الطيبة.. وكان بعضهم ضباطاً مهندسين ـ مثلنا فنحن الثلاثة كنا ضباطا مهندسين ـ من أسلحة مختلفة ومنهم من كان فى كلية أركان حرب زميلاً لجمال عبدالناصر وقت كان أستاذاً فى الكلية.. كما كان بينهم وكيل وزارة الرى لأننا فى حاجة إلى تخصص هيدروليكا لدراسة ومتابعة مياه القناة وتياراتها.. وبينهم أيضًا أساتذة من كلية الهندسة.. وكيل وزارة المالية وأساتذة قانون.. وهكذا لتتكامل الاختصاصات المطلوبة..

وجرى اجتماع تمهيدى فى اليوم التالى على أساس أن الجميع مكلفون بمهمة خارج القاهرة فى الغد لكن دون الإفصاح عن «السر» الحقيقى.. وبعد انتهاء الاجتماع قامت المجموعة الثلاثية الرئيسية بتقسيم السبعة والعشرين إلى ثلاث مجموعات لتتولى كل منها السيطرة على مراكز شركة القناة الرئيسية فى الإسماعيلية وبورسعيد والسويس.. وأخذنا فى دراسة التفاصيل فى ضوء وعلى أساس «الملفات» المهمة عن القناة التى أتى بها محمود يونس من عند الرئيس جمال عبدالناصر كما كان الاتصال مستمراً بين عبدالناصر ويونس..

وفى اليوم التالى التاريخى السادس والعشرين من يوليو.. التقينا جميعًا فى الصباح فى مكتب محمود يونس.. ثم تحركت بنا السيارات إلى

الإسماعيلية.. واتجهنا مباشرة إلى مكتب قائد معسكر الجلاء حيث وجدنا القادة العسكريين فى الانتظار ـ دون أن يعلموا شيئًا فالتعليمات لديهم أن ينفذوا ما يطلبه المهندس محمود يونس..

كان محمود يونس.. هو القائد.

وكان جمال عبدالناصر قد أعطاه سلطة رئيس الجمهورية..

وكانت المجموعة المكلفة بالاتجاه إلى بورسعيد بقيادة المهندس محمد توفيق الديب.. قد ذهبت.. ومثلها مجموعة السويس بقيادة المهندس عبدالهادى الشافعى.. كما كانت هناك مجموعة قد رابطت قرب مقر شركة القناة فى جاردن سيتى بالقاهرة..

وكان مع قائد كل مجموعة مظروف مغلق سرى للغاية وعليه ألا يفتحه إلا عندما يذكر جمال الناصر فى خطابه بالإسكندرية اسم ديليسبس.... وهكذا تحلقت كل مجموعة حول جهاز الراديو.. وبالنسبة لنا فقد كنا فى الإسماعيلية ـ كما ذكرت ـ وجلسنا.. وعندما نطق عبدالناصر اسم ديليسبس.. تبادلنا نحن الثلاثة الذين نعرف.. النظرات وخفقت قلوبنا.. وإذا بعبد الناصر ـ ليؤكد الرسالة ـ يعيد ذكر اسم ديليسبس.. فأعطى بهذا الإذن لمحمود يونس ليعلن عن السر.. وصاح الجميع مهللين مكبرين..

وانطلقنا إلى المركز الرئيسى فى الإسماعيلية.. ودعونا المديرين الكبار ـ وكلهم أجانب ـ للاجتماع وتحدث إليهم المهندس محمود يونس بادئاً أن عليهم عدم الانزعاج.. وأن قراراً قد صدر بتأميم شركة قناة السويس.. وهنا بدأ المديرون يتصايحون كيف ومتى؟ وأثناء شرح يونس.. كان الراديو الذى حرصنا على وجوده مفتوحًا.. ورفعنا صوته وعبدالناصر يعلن القرار التاريخى الذى فور أن بدأ فيه.. ارتفع صوت هدير الجماهير تأييداً

ومباركة مما قوى عزيمتنا وشعر كل منا أن القرار الخطير ليس فقط قراراً جمهورياً وإنما هو أيضًا قرار شعب بأسره.. وبدأ الاضطراب على المديرين والموظفين الأجانب.. فطمأنهم يونس مؤكداً لهم مبادئ أساسية: إن حياتهم وأسرهم وأموالهم فى حماية تامة وسلامة كاملة وأن هذه مسئولية الدولة المصرية لتأمينهم وممتلكاتهم وتنفيذ رغباتهم ـ وإن الإدارة الجديدة للقناة يسعدها بل ترجوهم أن يستمروا فى أعمالهم بنفس تخصصاتهم وبنفس مرتباتهم وامتيازاتهم ـ وإن كل حقوق العاملين بالشركة مصونة دون مساس بل إن حقوق المساهمين فى الشركة مصونة وسيتم تعويض حملة الأسهم كما أعلن الرئيس عبدالناصر حسب إقفال بورصة باريس فى اليوم السابق. وأنهى يونس كلمته بإعادة طمأنة العاملين ورجاء الإدارة الجديدة بأن يستمروا فى أعمالهم..

هنا شعر المديرون والعاملون ـ الأجانب ـ بالاطمئنان والهدوء.. وبدأ نفر منهم ـ وقد أحس بحاجة الإدارة الجديدة إليه ـ يمارس نوعًا من الضغط أو.. التخويف.. فقال ما معناه.. إن هذا قرار خطير.. وقد لا تدرك مصر العواقب الخطيرة التى ستنجم عن ذلك.. وردود الفعل الدولية.

وبعد مناقشة تحلى خلالها محمود يونس ـ ونحن معه ـ بالصبر والهدوء.. عاد الجميع إلى عمله.. وبدأنا ـ كل فى اختصاصه ـ يمارس مسئوليته بالحرص على إدارة المرفق بسلامة وسلام..

وخلال ذلك كان يونس قد اتصل بعبدالناصر يعطيه «التمام» ويبلغه بالتطورات كما كان يتلقى اتصالات من بورسعيد والسويس ومن القاهرة.. وأيضًا كانت هناك شبكة من الاتصالات وتبادل المعلومات مع الجهات المختلفة المعنية بالتنفيذ ومراقبة ومتابعة ما يحدث لحظة بلحظة..

ومرت الساعات والأيام الأولى فى هدوء نسبى مشوب بالحذر الشديد.. ولم نكن ننام سوى سويعات قليلة..

وما بين هموم العمل ـ وكان نصيبى مسئولية الإدارة الهندسية ـ كان ذهنى يشرد أحياناً.. يستعرض شرائط وصوراً من الماضى والحاضر..

و.. يا له.. من قدر! فإنه قبل سنوات من ذلك اليوم، وعندما كنت طالباً فى كلية الهندسة بجامعة القاهرة كان مشروعى الذى أعددته فى السنة النهائية يتصل بقناة السويس وهو تصميم شبكة تضم ست أنابيب ـ قطر كل منها متر واحد ـ تعبر من نفق تحت القناة لتحمل مياه نهر النيل لرى أرض سيناء وزراعتها وإعمارها.. وكان هذا أول اهتمام جاد لى بالقناة. أما الاهتمام الثانى فإنه بعد تخرجى مهندساً مدنيًا قدمت أوراقى للالتحاق بجهتين هما: شركة قناة السويس، والقوات المسلحة.. واستدعانى المسئول فى الشركة وفحص أوراقى وقال لى: إن كل مؤهلاتك سليمة ومطلوبة.. لكن هناك عيبًا واحداً هو أن لغتك الفرنسية ليست على المستوى. ونحن ـ أضاف المسئول ـ نتعامل بهذه اللغة ولذا.. نعتذر لك!

وتمر السنوات. وبعد أن التحقت ضابطاً بالقوات المسلحة..نقلت إلى هيئة البترول ـ وهذه قصة أخرى ـ ثم هأنذا أعود إلى القناة.. وأكثر من ذلك أقوم ـ بصفتى مديراً للإدارة الهندسية بالقناة ـ بتنفيذ مشروع تخرجى وهو مد مواسير المياه الست من تحت القناة!

أعود إلى تلك الأيام التاريخية.. فإنه بعد نحو أسبوع.. أجمعت التقارير والمتابعات من الداخل والخارج على ملاحظتين مهمتين لكل منهما دلالته.. والربط بينهما يعطى مؤشراً مهماً:

الأولى: أن المديرين والمرشدين والموظفين الأجانب الذين كانوا فى فرنسا ودول أخرى يقضون أجازاتهم السنوية.. لم يعودوا رغم انتهاء الأجازة!!

الثانية: أن الموجودين الأجانب فى الإسماعيلية ـ والمدن الأخرى ـ يجرون اتصالات خفية ويبيعون بعض أثاثات منازلهم ومتعلقاتهم ويصفون ارتباطاتهم..

وكانت هذه المعلومات مؤكدة.. والمعنى أن شركة القناة المؤممة ـ ومعها الدول المعارضة ـ قد أيقنت أن العمل منتظم فى قناة السويس وأن الإدارة الجديدة تقودها جيداً.. ومن ثم قررت هدمها من الداخل فأصدرت تعليماتها السرية إلى الموجودين فى الخارج بعدم العودة إلى مصر.. وإلى الموجودين بالداخل بتصفية أمورهم والانسحاب من العمل والسفر إلى الخارج!

لقد اتضح المخطط التآمرى.. الذى يستهدف الانهيار!

معركة الخمسين يوماً

وكان المخطط الذى اتضحت معالمه يوماً بعد يوم.. هو أن يتم الانسحاب الكامل وتوقف كل الأجانب عن العمل فى منتصف شهر سبتمبر وتحديداً فى منتصف ليلة ١٤/١٥ سبتمبر أى بعد نحو خمسين يوماً من التأميم.. فماذا نفعل؟

لقد وفقنا الله ونجحنا فى خوض معركة الخمسين ساعة فى إجراءات التأميم ـ بالغة السرية ـ منذ أن علمنا يوم ٢٤ يوليو حتى دخلنا مقر شركة القناة.. فهل يوفقنا سبحانه فى معركة الخمسين يوماً منذ أن تسلمنا إدارة

القناة إلى يوم الانهيار الذى رتبوا له.. فهل ستنجح المؤامرة التى يبدو أنهم على ثقة من نجاحها بدليل إعلانهم هذا رسمياً من خلال إنذار شديد اللهجة صدر فى أوائل أغسطس ١٩٥٦ ؟

ماذا نفعل وإدارة القناة عملية صعبة.. و«مرشد» القناة الذى يعبر بالسفن مؤهل تأهيلاً خاصاً.. ووثائق الشركة وكل أوراقها ومستنداتها المهمة موجودة فى مقر الشركة بباريس بما فى ذلك البيانات الفنية عن المجرى وغاطس السفن..

وبسرعة بدأنا تنفيذ خطة عملية من جهتنا.. فنشرنا إعلانات فى الصحف الأجنبية بالخارج نطلب مرشدين، خاصة الكبار أصحاب الكفاءة والخبرة.. وأجرينا اتصالات مع القوات البحرية، ومع البحرية التجارية للاستعانة بعدد من رجالها ـ القباطنة الأكفاء ـ للعمل كمرشدين بعد التحاقهم بدورة تدريبية قصيرة مكثفة ومركزة.. خاصة وأن الملاحة فى قناة السويس مختلفة عن غيرها. فهى مجرى ملاحى ضيق يموج بالتيارات.. ولذلك كانت أفضلية التعاقد مع المرشدين الأجانب الذين يعملون فى مناطق مشابهة مثل مرشدى «البواغيز».. وهكذا جاءنا مرشدون من روسيا واليونان وإيطاليا وغيرها.. إضافة إلى المصريين.

وعلى نفس المنوال.. فعلنا فى كل التخصصات: الفنية ـ وقياس السفن ـ والورش ـ والاقتصادية.. وغيرها..

وهنا لابد من الإشادة والإشارة إلى المرشدين اليونانيين. فإن سبعة منهم ـ وكانوا مولودين فى مصر ـ من كبار المرشدين أى أصحاب الخبرة والكفاءة والقدرة على إرشاد وقيادة السفن الكبيرة.. رفضوا الانسحاب وقرروا البقاء فى عملهم بمصر.. وهؤلاء سدوا فراغاً كبيراً..

عيون العالم فى الليلة الموعودة

وجاءت الساعة الموعودة.. منتصف ليلة ١٤/١٥ سبتمبر.. التى تصبح فيها القناة – طبقا للمؤمراة – بغير مرشدين وبغير الخبرة الأجنبية وانتبه الجميع وتركزت الأعين على ما سوف يحدث.. وذهبت وفود صحفية وإعلامية أجنبية إلى بورسعيد لتشهد وتسجل «الواقعة» ـ!! ـ وكنا أيضًا ـ المهندس محمود يونس وأنا وعدد من الزملاء هناك.. لأنه ـ تنفيذًا للمؤامرة ولإحراج الإدارة الجديدة ـ رتبوا قافلة ضخمة لتعبر القناة دخولاً من بورسعيد.. وساهم المناخ فى معاكستنا ـ أو.. ربما ليثبت كفاءتنا ـ فقد كانت الليلة ملبدة بالضباب.. وكان موعد دخول القافلة فى الساعة الأولى من فجر ١٥ سبتمبر أى فى ساعة الصفر.. ودارت مناقشة فنية.. هل نؤثر السلامة ونقرر أن تنتظر القافلة فى البحر المتوسط حتى ينقشع الضباب ثم تعبر بأمان وسلامة.. أم نخاطر ونخترق الضباب ونعبر؟

كان الموقف حرجًا.. والعالم كله يترقب والأبواق جاهزة للتهويل والتشنيع وإشاعة «الفضيحة»!

وهنا.. أصدر محمود يونس القرار الفاصل وهو أن نتكل على الله سبحانه وتعبر القافلة إلى القناة.. وسط الضباب ورغم المخاطر!

ووضعنا أيدينا على قلوبنا.. وبدأ العبور.. ونجح.

ولم يكن النجاح بحسب قياساتهم متوقعًا.. بدليل أنهم أعدوا أنفسهم لترتيبات ما بعد «الفشل» بل بدأوا فى ذلك.. فصدرت بعض الصحف الإنجليزية فى ذات اليوم بمقالة مكتوبة سلفًا تعلن فيه فشل الإدارة المصرية بعد انسحاب المرشدين وتتهكم قائلة إنه «على المصريين أن يزرعوا قناة السويس بالبطاطس.. فهذا هو ما فى استطاعتهم!»

هكذا كانت خطتهم.. وكان توقعهم.. وكان فشلهم الذريع!

ولكى ندرك حجم المؤامرة.. فإن الأمر لم يتوقف عند تحديد ساعة الصفر للانسحاب.. وشن حرب نفسية بشعة.. بل إنهم رتبوا للقافلة ـ المشار إليها ـ أن تضم عدداً من السفن أكبر من المعتاد ليحدثوا ارتباكاً لنا.. وليس هذا فقط بل إنهم رتبوا فصولاً شريرة أخرى من الخطة.. ففى ذات اليوم ـ ١٥ سبتمبر ـ الذى تتابع أحداثه أعين العالم.. دفعوا بعدد كبير من السفن ليعبر القناة.. وأعطوا تعليمات سرية إلى وكلاء شركات السفن وقباطنتها بافتعال الخلافات والتصادم معنا.. ومثلاً فإن النظام المعمول به والمعروف سلفاً يقضى بأن وكيل الشركة يبلغ عن قدوم السفينة للعبور سواء من بورسعيد والاتجاه جنوباً.. أو .. من السويس والاتجاه شمالاً ويعلم عن بياناتها ويسدد الرسوم المالية المطلوبة منها قبل عبورها.. لكنهم فى هذا اليوم لم يفعلوا ذلك.. وكنا نفاجأ بالسفينة التى تريد العبور دون دفع الرسوم المالية.. وكان هدفهم بالطبع أن نرفض فيتعطل عبور السفن ويحدث تكدس لما وراءها.. وفى ذات الوقت يشنعون علينا ويعلنون فى العالم كله أن مصر لاتريد عبورالسفن ولا تقدر على الإدارة..

ومرة أخرى وجدنا أنفسنا أمام قرار خطير.. ومرة أخرى اتخذ محمود يونس قراراً حاسماً وهو السماح بعبور السفن وتقديم كل الخدمات لها دون أن تدفع لكن يكفى توقيع قبطان السفينة على أن يدفع الرسوم فيما بعد..وحدث هذا، وفيما بعد حصلنا الرسوم فإن الشركة المالكة لا يمكن أن تهرب من هذا إلا إذا كانت تريد الاستغناء نهائيًا عن قناة السويس.. وهذا مستحيل!

لقد كانت أياماً مشحونة.. فقد اعتمدنا ـ بعد توفيق الله سبحانه ـ على المرشدين الثلاثين المصريين الذين كانوا موجودين من قبل ـ ولم يكونوا

كلهم على كفاءة كاملة ـ وعلى المرشدين اليونانيين السبعة الكبار ـ وعلى الذين تعاقدنا معهم بعد التأميم سواء من الأجانب أو.. المصريين من القوات البحرية والأسطول التجارى.. وكان العبء مضاعفًا على كل هؤلاء.. فإن النظام المعمول به ـ قبل التأميم ـ أن يتولى إرشاد السفينة فى رحلة عبورها.. أربعة مرشدين.. أولهم مرشد البوغاز يعبر بها من البحر إلى الميناء ـ بورسعيد أو السويس ـ ثم مرشد قناة من الميناء إلى الإسماعيلية.. ثم مرشد ثالث من الإسماعيلية إلى الميناء الآخر.. ثم المرشد الرابع من الميناء إلى البحر.. ولكن ظروف ما بعد التأميم وعدم وجود مرشدين أكفاء عديدين.. أدت إلى أن «مرشداً واحداً» يقوم بكل هذه المهام فيقود السفينة من البحر إلى البحر عبوراً بالقناة.. واستمر هذا النظام نحو شهرين حتى استكملنا عدد المرشدين ليصل إلى ١٨٠ مرشداً كما كان من قبل.. ثم كان العدوان الثلاثى.. وتلك قصة أخرى!

● **محمود مراد:** عودة إلى المشهد التاريخى فى تلك الفترة.. وكما يبدو فإن مسألة المرشدين كانت أبرز المشاكل.. لكن ماذا عن غيرها.. المعدات مثلاً؟

● **المهندس محمد عزت عادل:** نعم.. المعدات كانت مشكلة. لكن أسمح لى قبلها القول إن قرار تأميم قناة السويس الذى أعده الدكتور مصطفى الحفناوى بتعليمات جمال عبدالناصر، أعطى مجلس إدارة القناة الاستقلالية وكل السلطات، دون الرجوع إلى أية جهة ـ لكن طبعًا بإشراف الجهاز المركزى للمحاسبات ـ.. و.. دون التقيد بأية لوائح ومن ذلك تحديد رسوم العبور ـ رفعها أو.. خفضها ـ وإبرام التعاقدات.. وهذا أعطانا حرية التحرك.. أيضًا فإن رئيس الجمهورية وافق على تخصيص ١٥ ٪ من

إيرادات القناة لتحديث وشراء معدات جديدة بدلاً من الموجودة المتهالكة. وبهذا حدث تطوير ضخم لم يكن سيحدث لولا تأميم القناة..

● **المهندس مصطفى والى:** شكراً على أن تتاح لنا فرصة الاستماع إلى هذا الشرح الوافى والعرض الذى يجيب على تساؤلات عديدة ومنها ما كان يثار من أن قرار التأميم جاء متسرعاً لأن مصر كانت ستستردها بعد ١٢ سنة والآن عرفنا أنه بافتراض ذلك فإن مصر كانت ستتسلمها غير صالحة.. لقد عاصرنا التأميم وكنت وقتها فى التاسعة من عمرى وأتذكر فرحة كل الشعب بهذا..

● **المهندس محمد عزت عادل:** بالنسبة لى.. فقد كان عندى وقتها أقل من ٣١ سنة وقد تركت القناة وعمرى ٧٠ سنة إذ أن الرئيس **حسنى مبارك** مد خدمتى عشر سنوات بعد المعاش.. وقد عشت فى القناة ٤٠ سنة وأعتقد أن المياه المالحة لها لا تزال حتى الآن تجرى فى عروقى..

● **أيمن الأمير:** إن ما ذكره المهندس محمد عزت يمثل إضافة مهمة للغاية وفائدة؛ فإن التفصيلات التى ذكرها لها دلالات مهمة.. وأذكر أنه عندما قال جمال عبدالناصر فى خطابه: «قرار من رئيس الجمهورية بتأميم الشركة العالمية لقناة السويس.. فإنه قد حدثت انتفاضة شعبية.. وهذا دليل على وعى الجماهير وتأييدها للقرار..

المهندس محمد عزت عادل: لقد دفعت مصر ضريبة غالية جدا فى حفر قناة السويس وقدمت ١٢٠ ألف شهيد خلال عملية الحفر بالفئوس البدائية.. التى استمرت عشر سنوات ونصف سنة هى مدة الحفر.. كما عانت مصر بسبب القناة وجاء الاحتلال البريطانى لمدة ٧٤ سنة.. وغير ذلك كثير فى حين إنها فى المقابل لم تكسب بل إن نصيبها من الإيرادات

ضئيل وغير عادل.. وكذلك فإن الشركة المؤممة كانت دولة غير الدولة، لا تخضع مثلاً للجمارك وكانت تستورد كل احتياجاتها ـ بما فى ذلك القلم الرصاص ـ من فرنسا والخارج.. وكان الشعب المصرى فى منطقة القناة ومدنها يشعر أنه غريب فى بلده وأن الشركة ومن فيها دولة أخرى.. ولم يكن المواطن المصرى قادراً على السير على الأرصفة بجوار مبانيها وأنديتها..

ولذلك فإنه بمجرد إعلان جمال عبدالناصر لقرار التأميم انتفضت الجماهير تعلن تأييدها وتستشعر كرامتها وأن حقوقها قد عادت إليها.. فقد فهم الناس المعنى.. وأعطانا هذا ـ ونحن ننفذ القرار ـ دفعة كبرى..

● **السفير سامح ضرار:** ما رأيكم فى عبور السفن النووية للقناة.. وألا يمثل هذا خطراً عليها؟

● **المهندس محمد عزت عادل:** إن عوامل السلامة والأمان للمنشآت النووية.. تطورت الآن إلى ما يحقق الأمان بنسبة ١٠٠٪.. وإن كانت معايير السلامة بالطبع تختلف.. ولذلك فإننى شخصيًا مقتنع بضرورة **وحتمية إنشاء محطات نووية فى مصر لتوليد الطاقة..** ولا يجب أن نشكك فى قدرة المصريين فإن لديهم الكفاءة وتوجد كوادر عظيمة.. وبالنسبة لعبور هذه السفن فلا مانع بشروط توافر عوامل الأمان ومشاركة المتخصصين فى هيئة الطاقة النووية المصرية.. والتحسب لكل الاحتمالات..

محمود مراد: إذا عدنا للمشهد التاريخى.. وأسأل إذا كانت معركة التأميم قد بدأت فى الرابع والعشرين من يوليو ـ عندما علمتم ـ لكننا أيضاً لا نغفل الجهود المضنية التى جرت قبل ذلك.. ولكن منذ يوم ٧/٢٤ حيث معركة

التنفيذ.... فمتى يمكن القول إنها ـ أى المعركة ـ قد انتهت واستراحت الأعصاب؟

تحفر قبرك بيدك

● **المهندس محمد عزت عادل:** المعركة كانت مستمرة والاختبارات متلاحقة.. بدءاً من عملية التأميم نفسها إلى انسحاب المرشدين إلى معركة العدوان الثلاثى أكتوبر ١٩٥٦ حيث تم إغراق سفن فى المجرى ثم بعد انسحاب العدوان كان من مصلحة كل الدول سرعة إعادة افتتاح القناة؛ لذلك أرسلت دول عديدة غواصين ومعدات للمساعدة فى هذا وتولى قيادتهم الجنرال هويلر قائد سلاح المهندسين الأمريكى.. وبعد هذا أخذنا فى استكمال الأفراد والمعدات وتطهير وتطوير المجرى.. وإذا بعدوان يونيو ١٩٦٧ الإسرائيلى يقع.. وجرى إغراق سفن وتخريب المجرى واستمر إغلاق القناة ثمانى سنوات وكنا خلالها فى مرحلة صعبة للحفاظ على المكتسبات وأهمها البشر من مجموعة الفنيين الذين تدربوا وأخذوا خبرات واسعة.. فهل نتركهم يرحلون من مصر أو ينتقلون إلى أعمال أخرى؟ ولقد كان قرار الهيئة الاحتفاظ بالقوى البشرية والاستمرار فى صرف مرتباتهم ومخصصاتهم..

لكن هناك أيضًا مسألة مهمة واجهتنا هى التطور المذهل الذى حدث خلال غلق القناة لبناء السفن، فإن شركات التجارة العالمية وشركات السفن بدأت التفكير فى بناء السفن العملاقة التى يمكن أن تبحر عبر طريق رأس الرجاء الصالح وتعوض طول المسافة بمضاعفة الحمولة..

ونحن لم نكن خلال الغلق فى حالة استرخاء.. فإن الهيئة هى التى تتولى تشغيل محطات مياه الشرب للمدن على طول القناة.. والمستشفى وأنشطة أخرى.. وإلى جانب هذا ـ وكنت وقتها مديراً للإدارة الهندسية

بالقناة ـ تابعنا عمليات بناء وتطوير السفن.. وكيف نستعد لها بالتخطيط إعادة تطهير وتوسيع المجرى وشراء معدات جديدة..وجهزنا مشروعاً كاملاً بهذا بدفتر شروطه ومواصفاته لنطرحه فور إعادة الافتتاح حتى يحقق نقلة كبيرة جداً للقناة وإمكاناتها.. وكان هذا المشروع يتكلف مليار و٣٠٠ مليون جنيه. وتقرر عرضه على البنك الدولى للحصول على قرض قيمته مائة مليون دولار مثلاً ثم ونتيجة لموافقته التى تجىء بعد دراسة فنية واقتصادية يكتسب المشروع مصداقية نحصل بها على قروض أخرى من الصناديق العربية والإسلامية بقروض ميسرة.. وأرسلنا إلى البنك ـ وكان ذلك عام ٧٤ بعد حرب أكتوبر ـ فرد بالموافقة المبدئية وطلب سفر وفد إلى واشنطن فسافرت أنا إلى هناك.. وأثناء المحادثات وافق مسئولو البنك على كل شىء لكنهم اشترطوا **شرطًا واحدًا هو أن يكون للبنك سلطة الإدارة لضمان تنفيذ المشروع** ولما قلنا لهم إن المصريين قادرون.. قالوا إن هذا مشروع كبير.. لكنى رفضت رفضًا تامًا.. وإذا بمسئول البنك يقول لى.. إن هذا ليس اختصاصك.. والأفضل أن ترجع إلى حكومتك لسؤالها،.. فقلت إننى بالطبع سأرجع.. لكنى متأكد وإذا قيل لى أن أوقع لكم مع وجود هذا الشرط.. فإننى لن أوقع!!

فى ذلك الوقت، عرف **عبداللطيف الحمد رئيس صندوق الإنماء الكويتى** وعضو مجلس إدارة البنك الدولى بالخلاف فدعانى لمناقشته وقال لى ـ بعد الشرح ـ إنه مشروع عظيم ـ وإذا رفض البنك الدولى إعطاءك القرض.. فإننى سأعطيه لك من الصندوق الكويتى.

وكان قوله هذا نقطة فاصلة مشجعة.. دعمتنى فى المفاوضات.. فكان أن دعانى نائب رئيس البنك الدولى وبعد جولة مباحثات معه.. قال لى إنه

سيوافق على إعطاء القرض ولكن ـ أضاف يحذرنى ـ فإنك تحفر قبرك بيدك!!

فقلت له: إننى موافق ـ فهذا أفضل من أن يحفره غيرى!

والمهم أننا بدأنا تنفيذ المشروع.. وجاء روبرت ماكنمارا رئيس البنك الدولى إلى مصر وتفقد المشروع.. فقال معترفاً أنه مشروع ممتاز وأنه الوحيد الذى نفذ فى موعده وحسب دراسته المعدة سلفاً.

● **محمود مراد:** بعد تجربة تأميم القناة ومعركتها.. ما الدرس المستفاد؟

● **المهندس محمد عزت عادل: الدرس:** إن مصر غنية بالثروات.. وغنية بأبنائها.. والمهم أن يتوافر المناخ الملائم.. وكنا نتمنى تكرار تجربة إدارة القناة باستقلالية وبعد ذلك إذا أخطأ أحد.. حاسبوه بعنف.

● **محمود مراد:** هل كان قرار تأميم القناة ـ بتداعياته وبما فى ذلك عدوان ٥٦ ـ يساوى؟

● **المهندس محمد عزت عادل:** إنه يساوى وأكثر.. وإننى فخور بأننى كنت واحداً من الذين ساهموا فى هذا العمل الوطنى.

● **محمود مراد:** هل هذا العمل.. أخذ حقه فى الذاكرة المصرية؟

● **المهندس محمد عزت عادل:** ليس إلى حد مرضٍ.. وربما هناك عيب فينا.. إننا لم نسجل كل التفاصيل.. لكن التاريخ يسجل كل شىء.. ويعطى العبرة..

● **أيمن الأمير:** هل توجد وثائق وأسرار عن التأميم لم يكشف عنها حتى الآن؟

● **المهندس محمد عزت عادل:** على قدر علمي.. لا يوجد..

محمود مراد: هل أخذ الرجال الذين قاموا بمعركة التأميم.. حقهم فى التكريم؟

● **المهندس محمد عزت عادل:** نعم.. وقد منح الرئيس جمال عبدالناصر كل أعضاء المجموعة وسام الاستحقاق من الطبقة الأولى.. وبعد تنفيذ مشروع التطوير وإعادة الافتتاح عام ١٩٧٥ منحنى الرئيس أنور السادات نيشان الجمهورية من الطبقة الأولى.. وبعد بلوغى سن المعاش مد الرئيس حسنى مبارك خدمتى عشر سنوات..

والمكافأة الأكبر لكل منا.. أن ضميرنا مرتاح.. وقد وفقنا الله سبحانه.

● **محمود مراد:** هل نجحت الأعمال الدرامية فى السينما والمسلسلات وغيرها التى تناولت التأميم.. فى تصوير وتجسيد ما حدث؟

● **المهندس محمد عزت عادل:** ليس تمامًا.. وليس أمينًا.. فلم يعطوا لكل ذى حق حقه.. ولم يصوروا الواقع كما حدث مع أنه أكثر بلاغة من الإضافات التى تمت..

● **محمود مراد:** هل يوجد متحف للقناة يسجل كل تاريخها منذ عمليات الحفر إلى معركة التأميم وما بعدها..

● **المهندس محمد عزت عادل:** للأسف.. لا يوجد.. وعندما كنت رئيسًا لمجلس الإدارة فكرنا فى هذا وطلبنا من وزارة الثقافة وخصصنا أرضاً على بحيرة التمساح لكن لم يحدث شىء..

● **محمود مراد:** نشكرك.. ونحييك على هذه الشهادة الحية للتاريخ.. بعد نصف قرن من هذا المجد.. للوطن والأمة.. بل وللدول النامية كلها.

• صائغ قرار التأميم

جدّه.. حفر القناة!

لم يكن قرار جمال عبدالناصر بتأميم قناة السويس.. قراراً انفعاليا نتيجة لمؤامرة رفض تمويل مشروع السد العالى. فإن أية دراسة عقلانية لا يمكن أن تستوعب أن قراراً بمثل هذا الحجم من الأهمية والخطورة يمكن التفكير فيه وإعداد دراساته وحساباته خلال أسبوع واحد فقط. أما الحقيقة فهى تستدعى الإشارة والتركيز على أحد المكونات الأساسية فى شخصية عبدالناصر وأعنى به «البعد أو.. المكون الثقافى» فقد كان ومنذ فترة الصبا قارئا نهماً وواعياً للمطبوعات والكتب فى مختلف المجالات وظل هذا معه حتى بعد أن صار ضابطا بل ربما اندفع أكثر إلى القراءة لأنه كان من القلائل الذين ابتعدوا عن حياة الشباب الصاخبة وانشغلوا تماماً وإلى كل حد بالشأن العام وهموم الوطن والأمة.. ومن بين قراءاته كان تاريخ مصر خاصة فى العصر الحديث وما جرى من أحداث مؤثرة وفى مقدمتها عملية حفر وافتتاح وتشغيل قناة السويس.

والبعد الآخر وهو متداخل مع البعد الأول وأعنى به الانحياز الشديد إلى الجماهير.. والسعى بكل الطاقة والممكن لاسترداد حقوقها ورفع قبضة

الاستغلال والقهر والاستنزاف، وكانت رؤيته أن التحرر السياسي – أو.. الاستقلال التام – لا يمكن أن يتحقق إلا إذا كان مقترناً بالاستقلال الاقتصادى والاجتماعى..

ومن هنا مثلا كان صدور قانون الإصلاح الزراعى فى التاسع من سبتمبر ١٩٥٢ بعد سبعة وأربعين يوماً من قيام الثورة.. والمعروف أن محمد على بعد توليه حكم مصر عام ١٨٠٥ ميلادية أصدر مرسوماً بأن تصبح كل الأراضى تابعة له.. ثم وبدءاً من منتصف القرن التاسع عشر قرر الخديو سعيد ومن بعده الخديو إسماعيل توزيع إقطاعيات – أى قطعاً – من الأراضى على رجال الأسرة الحاكمة، والحاشية، ومن يقدمون خدمات له.. ولم يكن المزارعون المصريون يمتلكون إلا مساحات ضئيلة اشتروها من أصحاب الإقطاعيات.. وبالأرقام فإن اللورد كرومر – المندوب السامى البريطانى – قال فى تقرير أرسله من القاهرة إلى حكومته فى لندن عام ١٨٩٥ ،**أن ما يقرب من مليون فدان أى أكثر من ربع إجمالى مساحة الأراضى الزراعية كانت مرهونة للأجانب وإن واحداً وسبعين فى المائة من ملاك هذه الأراضى البالغ عددهم ٧٦١ مالكا، من صغار الفلاحين الذين يملك كل منهم مساحة أقل من خمسة أفدنة.. أما** المبالغ التى كانت مستحقة وفاء للرهن فكان مجموعها سبعة ملايين وثلاثمائة وثلاثة وعشرين ألف جنيه.. أى فى المتوسط العام بمعدل سبعة جنيهات على كل فدان،.. ومع ذلك لم يكن الفلاح البسيط قادراً على تسديد المبلغ لأنه إذا افترضنا أن فلاحاً كان يمتلك خمسة أفدنة فإن الواقع – آنذاك – كان يعنى أنه يمتلكها وأسرته الكبيرة – الإخوة والإخوات – وأسرته الصغيرة – الزوجة والأبناء – أى أن ثلاث أو..

أربع أسر وأبناءها تشارك فى هذه الملكية الصغيرة.. ومن ثم فهى أقرب ماتكون إلى الفقر!!!

وهكذا.. فإن رؤية جمال عبدالناصر كانت تتسع لتشمل قضايا عديدة ومن بينها قضية قناة السويس باعتبارها إحدى ثروات مصر المنهوبة. وكان عبدالناصر قد قرأ عنها من بين قراءاته ونهله للمعرفة.. وبعد نجاح الثورة فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢.. أعد ملفًا عنها.. وبدأ يقترب من موضوعها بشكل جدى عام ١٩٥٤.. عندما دعا الدكتور مصطفى الحفناوى المحامى والمهتم بالقناة للقائه والتحدث معه عنها..

والدكتور الحفناوى هو الذى صاغ فيما بعد قرار التأميم.. وصار مستشاراً قانونياً لهيئة القناة.. ومن المفارقات أن جده لأبيه شارك فى عملية حفر القناة.. ولأن حكاية الدكتور مصطفى الحفناوى مثيرة فضلا عن المعلومات الوفيرة التى تدخل فى صلب ما نناقشه، فإننا نترك ابنه الدكتور على الحفناوى – رئيس القرية الذكية الآن – لكى يكتبها بنفسه وكان قد بعث إلينا برسالة طويلة تحدث فيها عن بعض أسرار الإعداد لتأميم قناة السويس، وذلك بعد قراءته للندوة التى نشرناها فى «الأهرام» على حلقتين يومى ٢٧ يوليو و٣ أغسطس ٢٠٠٦ بمناسبة اليوبيل الذهبى للتأميم.. وفيما يلى ما كتبه الدكتور على الحفناوى :

من تاريخيات الإعداد لتأميم قناة السويس

إن كانت عملية تأميم قناة السويس حدثا تاريخيًا عظيمًا لما لتأثيره من دلالات سياسية واقتصادية هائلة على المستوى العالمى فى زمن تغيرت فيه طبيعة العلاقات الدولية بين العالم الأول والثانى وظهور ثالثهم على الساحة. وإن كانت تداعيات عملية التأميم من الضخامة التى ماكان لأحد

– أيا كان موقعه على الخريطة العالمية – القدرة على توقعها وتوقع كل عواقبها خلال نصف القرن التالى للحدث. فهناك أحداث تاريخية جزئية سابقة على الحدث الرئيسى، ساهمت فى الإعداد له، وأدت إلى حدوثه بالشكل المعلوم لنا، نضعها تحت عنوان «التاريخيات». تلك التاريخيات التى تساعدنا على فهم وإدراك الأبعاد التاريخية للحدث السياسى، والتى بدونها لا تكتمل الصورة التاريخية الصحيحة.

فمنذ أن جاء نابليون بحملته وعلمائه إلى مصر، وفى جعبته مشروع أساسى يحقق به أهداف إمبراطوريته لمنازعة إمبراطورية بريطانيا التى لا تغيب عنها الشمس، مشروع حفر قناة ملاحية بين البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر، كانت تلك الحملة بمشروعها المهم هى البداية الحقيقية لقضية قناة السويس ولوضع مصر على خريطة الصراعات الدولية الحديثة، والممتدة حتى يومنا هذا.

أحداث متلاحقة، عرفنا منها هزيمة نابليون وضرب الأسطول الفرنسى بموقعة أبى قير على يد القائد البحرى البريطانى نيلسون.

تنصيب محمد على واليًا على مصر ودعم فرنسا له قبل السلطان العثمانى، ودعمه فى أكبر عملية تحديث للدولة المصرية فى تاريخنا.

استمرار محاولات تنفيذ مشروع حفر قناة السويس من قبل جماعة السان سيمونيان الفرنسية رغم تحفظ محمد على، وهى الجماعة التى صححت الدراسات الهندسية الخاصة بالمشروع الذى قام به علماء نابليون، وقد غادروا مصر بعد رفض محمد على للمشروع، تاركين الدراسات الهندسية لدى نائب قنصل فرنسا بالإسكندرية فى ذلك الوقت الشاب فرديناند ديليسبس.

قيام ديليسبس بإقناع والى مصر الجديد، الخديو سعيد بضرورة وأهمية حفر القناة، فأصدر مرسوماً فى عام ١٨٥٤ بحق امتياز شركة قناة السويس فى حفر واستغلال القناة لمدة ٩٩ سنة (أول عقد بى. أو. تى. عرفته مصر).

احتفاليات ضخمة بافتتاح القناة عام ١٨٦٩ بحضور دولى متميز.

استمرار تحرش بريطانيا وفرنسا حول حرية المرور فى قناة السويس.

إخضاع مصر للديون من قبل المؤسسات المالية الفرنسية والبريطانية حتى اضطرت لبيع أسهمها فى شركة قناة السويس، فاستحوذت إنجلترا على نصف الشركة.

قيام بريطانيا باحتلال مصر تحت دعوى حماية مصالحها فى قناة السويس وحماية حرية الملاحة بها.

كل تلك الأحداث على أرض مصر كانت تتم فى إطار الصراع بين أكبر إمبراطوريتين فى العالم خلال القرن التاسع عشر.

فاشتعلت الحركات الوطنية مطالبة بالاستقلال والتحرر، واتخذت من قناة السويس رمزاً لانتقاص السيادة المصرية على جزء مهم من الأراضى المصرية. من أحمد عرابى إلى سعد زغلول مرورا بمصطفى كامل ومحمد فريد، دار صراع عنيف ضد الاستعمار البريطانى، وكانت قناة السويس هى محور هذا الصراع. أما حكام مصر، فكان موقفهم متأرجحًا بين محاولة الاستجابة لمطالب الحركة الوطنية والانصياع لأوامر الباب العالى أو السلطان العثمانى الذى كان فى موقف ضعيف حتى زوال الدولة العثمانية بعد الحرب العالمية الأولى.

أما إدارة شركة القناة، فكانت تعمل على خدمة حاملي الأسهم الذين أصبح معظمهم من الفرنسيين والإنجليز، رافضة القيام بأى استثمارات جديدة لتوسيع أو تعميق القناة، مدعية عدم الجدوى الاقتصادية لتلك الاستثمارات مع انتهاء حق الامتياز عام ١٩٦٨، مطالبة بالحصول على مضاعفة مدة حق الامتياز. ونذكر هنا دراما اغتيال رئيس الوزراء المصرى فى البرلمان عام ١٩١٠ لمحاولته طلب مد الامتياز للشركة. وهى الدراما التى أظهرت للعالم مدى ارتباط فكرة استرجاع القناة بالوجدان الوطنى المصرى.

وفى الحقبة التالية للحرب العالمية الأولى، شهدت الساحة السياسية المصرية أحداثاً جساماً. اندلاع ثورة عام ١٩١٩، حصول مصر على استقلالها السياسى عام ١٩٢٢، إصدار دستور ١٩٢٣، توقيع معاهدة ١٩٣٦ بين حكومة الوفد وحكومة بريطانيا التى قضت بجلاء القوات البريطانية عن مصر عدا منطقة قناة السويس، اندلاع الحرب العالمية الثانية، إلغاء المعاهدة من قبل حكومة الوفد عام ١٩٥٠ مع قيام الحكومة بتسليح المقاومة الشعبية والفدائيين لمحاربة التواجد العسكرى الإنجليزى فى منطقة قناة السويس، حريق القاهرة فى ٢٦ يناير ١٩٥٢ ثم قيام الثورة فى يوليو من نفس العام، توقيع اتفاقية الجلاء عام ١٩٥٤ وجلاء آخر جندى بريطانى فى يونيو ١٩٥٦ من قناة السويس. أحداث سريعة ومتعاقبة انتهت بتأميم شركة قناة السويس فى ٢٦ يوليو ١٩٥٦.

وهنا، آن الأوان للتحدث عن التاريخيات التى لازمت هذه الفترات العصيبة للحركة الوطنية المصرية. وما سنتناوله منها تخص شخصا بعينه ليس إلا مناضلا ممن ناضلوا من أجل استقلال وحرية الوطن. شخصاً أثرت

فيه قضايا الوطن فاتخذ من قضيتها الأم، قضية استرجاع القناة، قضية شخصية له وهبها فكره وحياته حتى أراد الله لمراده أن يتحقق.

نشأ مصطفى الحفناوى بمحافظة الشرقية. نشأ مستمعا لقصة جده «عبدالله» الذى اقتيد عنوة من بيته بقرية «حفنا» ببلبيس للعمل بالسخرةفى أعمال حفر القناة. نشأ مستمعاً لقصة القناة والسخرة وهرب جده منها إلى قرية «بنايوس» بجوار الزقازيق. نشأ واجداً السلطة تركب الخيل ببشرتها الحمراء وعيونها الزرقاء وتتحدث الإنجليزية. نشأ مستمعا لروايات السخرة والقناة وروايات هوجة عرابى وهزيمة التل الكبير واحتلال مصر.

أراد مصطفى الحفناوى، كما أراد ملايين المصريين، استرجاع سيادة مصر على أرض مصر بدءاً من قناة السويس، أراد ذلك فقرر أن يتعلم ويدرس قضايا بلاده ويسخر علمه فى الدفاع عنها. فالتحق بالمدارس ثم بكلية الحقوق بجامعة فؤاد الأول، رغم صعوبة ذلك لظروف أسرته المتواضعة.

بدأ نشاطه السياسى بالقلم كاتباً فى مختلف الصحف السياسية ثم صار رئيساً لاتحاد طلاب كلية الحقوق، واستمر ينشر مقالاته فى ربوع الأرض، وكان أستاذه فى الوطنية، الشيخ على الغاياتى ينشر له مقالاته بجريدة منبر الشرق التى كان يصدرها من منفاه فى جنيف، والتزم بالتوجهات السياسية لحزب مصطفى كامل ومحمد فريد وعلى الغاياتى، الحزب الوطنى.

وعندما وقعت مصر معاهدة ١٩٣٦، قاد مصطفى الحفناوى هجوماً شرساً على بنود المعاهدة معتبراً أنها ترسخ التواجد البريطانى فى قناة السويس، غير مكتفٍ بجلاء قواتها عن باقى الأراضى المصرية. وذاق فى حينه طعم السجون المصرية، للتحقق من أنه ليس ممن قاموا بمحاولة اغتيال مصطفى النحاس، نظراً لهجومه الشديد على بنود المعاهدة.

وعندما عاد حزب الوفد للحكم عام ١٩٥٠، استدعاه رئيس الحكومة النحاس باشا، وقال له: «أنت أكثر من درس وهاجم معاهدة ٣٦، وأنت رجل قانون، ورغم عدم انتمائك لحزب الوفد، إلا أننى أطلب معاونتك لإيجاد المخرج القانونى الذى يسمح لنا بإلغاء المعاهدة من طرف واحد، دون أن يكون لذلك عواقب على مصر».

وبالطبع، قبل الحفناوى القيام بهذا العمل، وقدم لمصطفى النحاس طلبًا فى المقابل. فقد قال له: «لقد أعددت منذ سنوات رسالة دكتوراه عن قناة السويس، وأرغب فى مناقشتها فى فرنسا حتى أحصل على اعتراف علمى من ذات الفرنسيين على حقنا فى استرجاع القناة، ويبقى لى الحصول على بعض البراهين من داخل شركة قناة السويس، ويستلزم ذلك الاتصال بالشركة على أعلى مستوى ولكن بأسلوب مستتر، فهل لكم معاونتى فى ذلك؟»، وكان الرد إيجابيًا ومتحمسًا من النحاس باشا، فاتصل بوزير الخارجية بتعيين مصطفى الحفناوى بوظيفة مستشار صحفى للسفارة المصرية بباريس.

ومن موقعه بباريس، استطاع الحفناوى الاتصال بإدارة الشركة، حيث استقبله رئيسها شارل روا ثم جورج بيكو. وقد نوه لهما أنه يعد كتاباً باللغة العربية عن إنجازات شركة قناة السويس حتى يعرف المصريون فضل الشركة والقناة على مصر. فاستجابوا وأتاحوا له الدخول إلى أرشيف الشركة للاطلاع على مايرى من وثائق، وكانت تلك الموافقة هى أولى خطوات نجاح عملية التأميم.

وبالفعل، ولعدة أشهر خلال ربيع عام ١٩٥١، استطاع مصطفى الحفناوى المحامى أن يدعم ملف قضية قناة السويس بمستندات تاريخية

حصل عليها من عقر دار شركة القناة. وكان أهم تلك المستندات التى حصل عليها وأدرجها برسالة الدكتوراه، هو **مرسوم إنشاء شركة مساهمة مصرية باسم شركة قناة السويس مؤرخًا فى ١٨٥٤، فى حين أن المرسوم السائد فى ذلك الوقت كان مرسومًا، اتضح فيما بعد أنه مزور بإنشاء شركة عالمية لقناة السويس** يكون مقرها باريس ومؤرخاً فى عام ١٨٥٦.

وقد كانت تلك النقطة هى السند القانونى فى إثبات حق مصر فى التأميم، فإن كانت الشركة بالفعل كياناً عالمياً ومقره باريس، فليس لمصر حق فى تأميم شركة غير مصرية، وإنما لأنها شركة مساهمة مصرية، فالوضع يختلف. وهو ما يفسر صيغة قرار التأميم: «تأميم الشركة العالمية لقناة السويس – شركة مساهمة مصرية»، وهو يعنى توضيح لجنسية الشركة المؤممة وليس تحديداً لصفة الشركة بعد تأميمها، فهى بالفعل قد تحولت لهيئة وليست لشركة مساهمة.

وبعد مناقشة مثيرة للرسالة بالسوربون بباريس يوم ٥ يونيو ١٩٥١، وكان عنوانها «قناة السويس ومشكلاتها المعاصرة»، وبعد حصول مقدمها على أعلى الدرجات، ثارت ثائرة الشركة، وقامت حملة صحفية بجرائد فرنسا عن فضيحة اعتماد السوربون لحق مصر فى استعادة القناة، وقامت الشركة بتكليف بعض أجهزة الاستخبارات الفرنسية بتعقب الحفناوى ومحاولة استرجاع المستندات الأصلية الخاصة بالشركة، وترجمة كل كتاباته وتقديم التقارير المفصلة عن تحركاته، وثبت ذلك من خلال الوثائق المضبوطة بمقر الشركة فى مصر بعد التأميم.

أما الحكومة المصرية، فقد تفضل وزير خارجيتها محمد صلاح الدين بكتابة مقدمة لرسالة الدكتوراه، مؤكداً أنها تعبر عن الموقف الرسمى

للحكومة المصرية، وأمر بتوزيع نسخ منها على كل سفارت مصر بالخارج باعتبارها مرجعاً قانونياً وسياسياً للحكومة المصرية فى شأن قناة السويس. وكانت هذه أول مرة تتخذ إحدى الحكومات المصرية موقفًا صريحًا من قضية تأميم القناة.

عاد مصطفى الحفناوى إلى أرض الوطن، وقام بشراء فيلا صغيرة بحى جاردن سيتى بجوار المقر الرئيسى للشركة بالقاهرة، وضع بها مكتب المحاماة الخاص به وأقام ملحقًا له ليكون دار نشر أسماه «دار مكافحة الاستعمار» وبه مطبعة لطبع جريدة أسبوعية أسماها «قناة السويس» ثم راح ينشر الوثائق والحقائق عن ممارسات الشركة فى مصر، فصارت حربا شخصية بينه وبين شركة القناة. كما صار ينشر إعلاناً عن استعداد مكتب المحاماة الخاص به الترافع عن أية قضية يكون أى مصرى خصما فيها لشركة القناة، فكانت النقابات العمالية للعاملين بالشركة من المصريين هم أول من استجابوا له، فرفع القضية تلو الأخرى مختصماً الشركة لاسترجاع حقوق العمالة المصرية.

وفى تلك الأثناء وقبل قيام الثورة اتصل به على ماهر عارضًا توليه وزارة لقناة السويس، لما لهذه القضية من اهتمام وطنى كبير مرتبطاً بقضية الاستقلال الوطنى. ولكن الأحداث تسارعت وقامت الثورة، حتى جاء أول اتصال بالحفناوى من رجال الثورة. فطلب اللواء محمد نجيب من الدكتور الحفناوى إلقاء محاضرة عن قناة السويس فى لقاء من الضباط الأحرار، تمت بالفعل يوم ١٧ نوفمبر عام ١٩٥٢ بنادى الضباط بالزمالك. وبعد المحاضرة، وفى جو حماسى مشحون، طلب محمد نجيب من الحاضرين الوقوف وإلقاء قسم باسترداد قناة السويس لتعود لمصر صاحبة الحق فيها.

توالت لقاءات مصطفي الحفناوى برجال الثورة كلما طلبوا منه ذلك، ثم كان إعلان الجمهورية فى ١٩٥٣ وتولى جمال عبدالناصر من بعد محمد نجيب، حتى كان اللقاء المهم التالى :

فى ربيع عام ١٩٥٤ طلب جمال عبدالناصر لقاء الدكتور الحفناوى لقاء سريا فى منزل أحد الأصدقاء المشتركين. وتم ذلك خلال غداء بمنزل المستشار محمود عبداللطيف. وبدأ الحوار بين طرفى اللقاء بسؤال من جمال عبدالناصر: «من يمول نشاطك يادكتور؟» فرد عليه قائلا: «إن تمويل نشاطى يأتى من الغرب، وأستطيع اطلاعك على المستندات الدالة على ذلك» . فوافق عبدالناصر على إحضار تلك المستندات، التى ذهب الحفناوى لإحضارها من مكتبه، فإذا بها فواتير أتعاب مكتب المحاماة الخاصة بقضايا هو موكلاً فيها عن بعض الشركات الأوروبية، ومنها الهولندية والفرنسية وغيرها. فقال عبدالناصر : لكن تلك الأتعاب تخصك شخصيا، وهى مال أولادك. فقال له الدكتور : نعم، ولكن أولادى يفضلون الحياة فى بلد مستقلة كاملة السيادة. ثم شرح له عبد الناصر سبب طلب اللقاء السرى، فقال له : «نحن اقتربنا من الاتفاق مع الحكومة البريطانية على جلاء قواتها من منطقة القناة، وأنت العقبة الأخيرة فى إنهاء هذه الاتفاقية، فهم يعتقدون أن حكومة الثورة مؤيدة لموقفك من التأميم وأن استمرار حملاتك على شركة قناة السويس تتم بموافقتنا، وإذا كانت نيتنا التأميم، فلن يستطيعوا إجلاء قواتهم وترك مصالح بريطانيا عرضة لمخاطر التأميم. لذلك، أطلب منك التوقف تماماً عن كتاباتك ومحاضراتك وإغلاق جريدتك، وياسيدى، بعدما يمشوا نؤممها لك» فكان رد الدكتور : أممها لمصر.

وبالفعل، توقف الحفناوى عن النشاط والكتابة والنشر، وذهب يهتم بشئونه العائلية وبتنمية مزرعة خاصة بأولاده ناحية أدفينا.

تم توقيع اتفاقية الجلاء عام ١٩٥٤، وأنهت القوات البريطانية رحيلها عن مصر فى ١٨ يونيو ١٩٥٦ وفقاً للاتفاقية الموقعة. وفى ٢٤ يوليو ١٩٥٦ بعد عودة الرئيس جمال عبدالناصر من رحلته ببريونى يوغوسلافيا، أى بعد الجلاء بشهر واحد، وفى ظل أزمة تمويل مشروع السد العالى، قام عبدالناصر باستدعاء الدكتور الحفناوى. وتم اقتياده بمعرفة حكمدار الإسكندرية من مزرعته بادفينا حتى منزل عبدالناصر بمنشية البكرى، وكان أسلوب البحث عنه واقتياده إلى منشية البكرى قد جعل أسرته تعتقد أنه قد تم اعتقاله. وفى الواقع فقد تم فى هذا اليوم لقاء مهم جداً بين الطرفين.

وصل الدكتور الحفناوى إلى منشية البكرى فى منتصف اليوم، وكان عبدالناصر جالسا مع على صبرى بحديقة المنزل، وبعد لقاء ودى استأذن على صبرى ودعا عبدالناصر ضيفه إلى مكتبه داخل المنزل، معتذراً عن أسلوب إحضاره مع عدم استضافته كما يجب نظرا لتواجد أسرة الرئيس بالمصيف.

وجد الدكتور الحفناوى مكتب جمال عبدالناصر مفروشاً بكل نسخ جريدة قناة السويس التى كان يصدرها، وكذلك مطبوعاته من كتب ورسائل تخص قضية قناة السويس، وقال له عبدالناصر، لقد قرأت كل كلمة كتبتها منذ سنوات طويلة، واستوعبت آراءك وأفكارك، ولكنى أريد منك أن تقص علىّ تاريخ القضية منذ ديليسبس وحتى الآن، وبدأت الجلسة الممزوجة بالأسئلة والإجابات، واستمرت حتى فجر اليوم التالى. وكان الدكتور الحفناوى مندهشا لكمية المعلومات التى اطلع عليها عبدالناصر بالفعل، ورغم ذلك راح يدقق فى معرفة كل التفاصيل. وعند الفجر، قدم عبدالناصر للحفناوى جلبابا ليسمح له بالوضوء والصلاة، وقال له : «والآن،

وبعد صلاة الفجر، وكما وعدتك، سنقوم بعملية التأميم، فاستعد لصياغة قرار التأميم بالشكل القانونى المطلوب».

هكذا دخل قرار التأميم حيز التنفيذ. ومن تتبع الأحداث المذكورة، يمكننا استخلاص معلومة تاريخية، وهى أن جمال عبدالناصر لم يتخذ قرار التأميم بصورة انفعالية كما يعتقد البعض، فقد سبق له اتخاذه منذ عام ١٩٥٤ كما أوضحنا، ولكن التوقيت كان مرتبطا بجلاء القوات البريطانية من منطقة القناة. أما الملاءمة السياسية فقد كانت إظهار القرار كرد فعل لرفض تمويل بناء السد العالى، ويمكننا الاتفاق أو الاختلاف على صواب هذه الملاءمة.

وانتهى لقاء عبدالناصر والحفناوى عند الانتهاء من صياغة قرار التأميم وتدقيقه، ثم قام عبدالناصر بإعطائه التعليمات الآتية: «أرجو أن تذهب إلى منزلك بالقاهرة، وتدخله بدون علم أحد، ولا ترد على أى اتصالات تليفونية أو طرق على باب منزلك، حتى أسرتك يجب أن تجهل مكانك. سنقوم بتنفيذ عملية التأميم بأسلوب مفاجئ وسريع مما يستلزم هذه الاحتياطات، وهناك زملاء من سلاح المهندسين وسلاح البحرية سيتولون القيام باستلام مرافق القناة الهندسية، وقد تحدث معارك هنا أو هناك إن أدركت الشركة بنيتنا تنفيذ التأميم، وأنت يادكتور رجل مدنى لن نجهدك فى أية عمليات أمنية، ثم استرجع عبدالناصر أماكن العمليات وقال: يبقى المقر الإدارى للشركة بالقاهرة، ولم يخطط له أحد من العسكريين. فما رأيك فى تولى هذه المهمة بما أنه بجوار منزلك، فسنرسل لك قوة من الشرطة تعاونك فى استلام المقر وإغلاقه بمحتوياته وتأمينه. ولكن لا تتحرك من منزلك قبل سماع كلمة «ديليسبس» بخطابى بالإسكندرية مساء ٢٦ يوليو».

هكذا أراد القدر أن يشارك بالفعل الدكتور مصطفى الحفناوى فى اجراءات التأميم نفسها بعدما شارك فى الإعداد له، وعندما ذهب فى الموعد المحدد إلى مقر الشركة، لم يجد قوة الشرطة، وكانت قد ضلت طريقها فى شوارع جاردن سيتى. فدخل بمفرده المقر، فوجد المدير المقيم للشركة، الكونت دى جرابيه، جالسا بحديقة المقر غير مدرك لما يحدث ولخطاب عبدالناصر، فتقدم منه، حتى وقف الكونت قائلا : أنت هنا – وكان بالطبع يعرفه شكلا – أتيت بنفسك؟ ماذا تريد؟ فقال له، لقد أممنا القناة وجئتك لتسلمنى إياها. فانفجر الكونت ضاحكاً وقال له : لقد كنا نعلم إنك مجنون، وهاهو الدليل، جئت تستولى على القناة.. وهنا دخل الصاغ عطا محمود مع قوات من الشرطة، وكان يتحدث الفرنسية بطلاقة، فأطلع الكونت على تعليماته وهى معاونة الدكتور الحفناوى فى استلام المقر وتأمينه. وبالنسبة لمصطفى الحفناوى، كانت هذه اللحظات هى نهاية مرحلة من مراحل ملحمة استعادة مصر لقناة السويس.

لكن لم ينته دور الدكتور مصطفى الحفناوى بتأميم القناة، فقد بدأ بعدها مرحلة جديدة من الكفاح فى إدارة شئونها القانونية من موقعه الجديد فى عضوية مجلس ادارة الهيئة. فشارك فى كل المفاوضات التالية للتأميم. ومثل مصر فى المؤتمرات الدولية وقاد فريق المفاوضة على تعويض حملة أسهم الشركة المؤممة. فكان إلى جوار زميله وصديقه المهندس محمود يونس، رئيس هيئة القناة، هو المعاون والمستشار القانونى فى مرحلة السيادة المصرية ومشروعات التوسعة والتعميق حتى أتى الجيل الثانى لتسلم هذا المرفق المصرى، والذى كان فى ذاكرة الأمة مطمعًا استعمارياً ثم صار رمزا للصمود. واليوم تحول إلى مصدر للتنمية والرخاء.

***

وفى تلك الأيام العصيبة التى تمر بها أمتنا العربية، ومناضلوها يتساقطون، أبحث عن شيء من الأمل، ولا يسعنى إلا أن أقول : لعل الذكرى الخمسين لتأميم قناة السويس تجعل لتاريخيات هذا الحدث موقعا إلى جوار تاريخ مصر المناضلة. فأجيال الأبناء والأحفاد فى أشد الحاجة لمعرفة عطاء الآباء والأجداد، حتى يكون ارتباطهم بجذورهم مصدرا للأمل ودافعاً لمزيد من الانتماء والوطنية.

• القيمة الباقية من المعركة!

إن أهم قيمة سياسية باقية لمعركة تأميم قناة السويس، فى يوبيلها الذهبى، بعد نصف قرن من يوم القرار العظيم، هو أن تعمل وتتطلع شعوب العالم – خاصة شعبنا العربى على امتداد الأمة – إلى إحياء هذه المناسبة ليس فقط تباهيا بما كان – مع أن هذا حقنا – ولكن أيضًا وبدرجة أكبر بالتصميم على استرجاع حقوقها المشروعة والوقوف هدفاً واحداً لمواجهة الممارسات الشرسة التى تقوم بها دول الاستعمار الجديد.. أو – دعونا نقولها – القوة الآحادية الآن – وبصراحة أكثر – الولايات المتحدة الأمريكية التى تنفذ مشروع استراتيجية السيطرة والهيمنة الموضوع من قبل المؤسسات الحاكمة فيها، ولا أقصد الإدارة القابعة فى البيت الأبيض فهذه ليست إلا الجزء الظاهر من جبل الجليد العائم فى مياه المحيط.. أما الجزء الخفى وهو الأعظم والمحرك فإنه يتشكل من وزارة الدفاع – البنتاجون – والمخابرات المركزية – والمباحث الفيدرالية – والشركات العملاقة التى تنطق باسمها وتعبر عن مصالحها مراكز الدراسات والأبحاث الجامعية وغيرها.. ومن هذا ما هو معروف بجماعات وقوى الضغط.. فإنه لا معنى ولا دور للجماعة – أى جماعة – إلا إذا كانت منظمة ولها آلياتها المؤثرة.. ولهذا

السبب ينعدم أو.. يخفت الصوت العربى رغم وجود نحو خمسة ملايين أمريكى ينحدرون من أصول عربية لكنهم بالتفتيت.. مبددون ، مع أن عددهم يساوى وربما يزيد عن عدد الصهيونيين الموجودين فى الولايات المتحدة..!

إن هذه القوى الفاعلة هى التى صاغت المشروع الأمريكى للسيطرة والهيمنة فى بداية التسعينيات من القرن العشرين عقب ونتيجة انهيار الاتحاد السوفيتى والكتلة الشيوعية.. وهو مستمر مع تجديده وتطويره فى ضوء المتغيرات..

ومن تطبيقات هذا المشروع ما نراه ونلمسه حاليًا، ليس فقط بصوره الصارخة فى أفغانستان والعراق وغيرهما وإنما أيضًا بصوره البراقة فى استثمارات لا تراعى البعد الوطنى.. وفى دواعى اقتصاد حر يهمل العدالة الاجتماعية.. وهذا وذاك.. وغيرهما يعيدون مرة أخرى سيطرة النفوذ الأجنبى كاملة على الموارد الطبيعية والإمكانات والمرافق الأساسية فى دول ما كان يسمى العالم الثالث ويطلقون عليها الآن.. النامية أو.. دول الجنوب، والهدف هو نفسه ما كان منذ نصف قرن.. بل ومنذ قرنين من الزمان.. من خلال الشركات الأوروبية التى استنزفت ثروات الهند وسائر دول آسيا.. ومناجم وزراعات إفريقيا وإمريكا اللاتينية، وبين هذه وتلك جرى استنزاف أمتنا العربية –وهو مايهمنا – وبسببها سيطر الاستعمار على عقد المواصلات الرئيسية والحاكمة ومنها باب المندب عند المدخل الجنوبى العربى للبحر الأحمر.. وكذلك مضيق جبل طارق.. ومنها قناة السويس ومصر كلها للتحكم فى قناة السويس والمدخل الشمالى للبحر المتوسط بل والتحكم فيه هو نفسه..

وكما نعلم فإن قناة السويس تتميز عن غيرها بأنها أهم الممرات المائية فى كل العالم من حيث القيمة الاستراتيجية لأنها تربط بين الشرق والغرب وتعمل على تقصير المدة الزمنية وضغط التكاليف المالية بنسبة تصل إلى نحو خمسة وسبعين فى المائة فضلا عن سرعة الأداء..

ولهذا السبب فإن المصريين القدامى – أيام الحضارة الفرعونية – ربطوا بين البحرين الأحمر والمتوسط عن طريق نهر النيل بشق وحفر ترعة تصل مابين البحر الأحمر والنهر وحملت اسم الفرعون «سيزوستريس» فكانت المراكب تنتقل من البحر إلى النيل ثم عبر أفرعه – وكانت سبعة أفرع وليس اثنين كما هو الآن – إلى البحر المتوسط.. ثم تكفلت الرمال بردم هذه الترعة لعدم رعايتها نتيجة اضمحلال الدولة المصرية.. وبعد الفتح الإسلامى جرى التفكير فى إعادة شقها.. وعندما جاءت الحملة الفرنسية واحتلت مصر فى أواخر عقد التسعينيات من القرن الثامن عشر كان الموقع الاستراتيجى هو السبب وفكرت فى ربط البحرين.. وبعد أن تولى محمد على وجاءت جماعة السان سيمونيين التى ساعدت فى إقامة القناطر على مجرى النيل أعادت التفكير فى المشروع لكن الوالى رفض خشية أطماع الدول التى يعلمها جيدا.. وهكذا إلى أن حدث ماهو معروف من اتفاق فى عهد الخديو سعيد.. ثم التنفيذ فى عصر إسماعيل وما أعقب ذلك من تداعيات ونتائج.. فكان الاستعمار الإنجليزى لمصر.. وكانت شركة قناة السويس دولة فرنسية الهوية داخل الدولة!

وكما قيل وبحق فإن النظام السابق لثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ فشل رغم كل التضحيات الشعبية النضالية فى تحقيق أهم قضيتين وهما : إنجاز الاستقلال التام – وتطبيق العدالة الاجتماعية.. وعندما تفجرت الثورة كانت هاتان القضيتان فى مقدمة اهتماماتها..

وطبقًا لما جرى فقد تحقق الجلاء باتفاقية ١٩٥٤ التى انسحب ورحل بمقتضاها آخر جندى بريطانى من مصر فى ١٨ يونية ١٩٥٦..

أما بالنسبة للعدالة الاجتماعية، فإنها لم تكن ممكناً - ولا يمكن أن تتحقق فى أى عصر وأى زمان - إلا إذا تحررت إرادة الوطن وسيطر على موارده وامكاناته ومقدراته.. وتلك عملية أصعب مشقة من طرد قوات الاحتلال مهما كان عددها وعدتها!

والأمر الذى أريد التركيز عليه.. أن ذلك كله كان فى عقل جمال عبدالناصر حتى وإن لم يفصح عنه تماما.. وإذا قرأنا بإمعان وحللنا بوعى ودرسنا أفكار الرجل فى كتابه الصغير بالغ الأهمية «فلسفة الثورة» فإنه كان مستحيلا أن تنفذ وتستقيم استراتيجية «الدائرة العربية» التى أشار إليها لتتلاحم مع الدائرتين «الإسلامية» و«الإفريقية» إلا إذا تحررت من الاستعمار العسكرى، والاقتصادى، وامتلكت مواردها الأساسية وقدراتها.

ولقد كان جمال عبدالناصر - كما قال زملاؤه وأصدقاؤه وسمعت هذا بنفسى من بعضهم - «دودة قراءة».. أى قارئا ممتازاً يلتهم الكتب فنبتت جذوره الفكرية والثقافية إضافة إلى معايشته الواعية لأحداث وطنه وأمته.. ليس هذا فقط بل إنه زار والتقى مقار وقيادات التنظيمات السياسية التى كانت موجودة - سواء السرية أو العلنية - ووقف على فكرها وبرامجها كما أنه كان يلتقى بالمفكرين والمثقفين فى مناقشات حرة مفتوحة وحدث هذا قبل الثورة.. وبعدها.. بل وإلى آخر يوم فى حياته.

وبفكره ووعيه.. بدأ بهدوء يسترد حقوق الوطن.. فكان تمصير البنوك. ثم كان القرار العظيم بتأميم الشركة العالمية لقناة السويس وهى شركة مساهمة مصرية .. لتصبح هيئة مصرية خالصة..

وهنا أريد التوقف عند نقطتين مهمتين.. لكل منهما دلالاتها.. ومغزاها..

الأولـــى: إنه لا يمكن أن يكون القرار نتيجة مباشرة لرفض البنك الدولى إعطاء مصر.. قرضاً لبناء السد العالى. لأنه مستحيل منطقياً أن تنبثق الفكرة ويجرى إعداد الدراسات الكاملة لها خلال أسبوع واحد فقط.. فالعمل أضخم وأخطر من هذا، ولكن ربما يكون رفض البنك الدولى سبباً فى سرعة التنفيذ.. أما القرار نفسه فهو فى عقل عبدالناصر لما اشرنا إليه لاستكمال الإرادة وتواصلا مع تمصير البنوك.. ولأسباب عديدة أهمها أن من يملك القناة يسيطر على أحد أهم عقد المواصلات ويتحكم أوايسهم فى التحكم فى البحرين المتوسط والأحمر وأن امتياز إدارة القناة كان سينتهى عام ١٩٦٨ ومصر تاريخياً لا تقبل بامتداده.. وبالتالى فإما ستتدخل الدول الأجنبية بالقوة.. أو.. أن شركة القناة ستتركها بعد أن تخفى مستنداتها ووثائقها وتترك آلاتها ومعداتها هالكة وبلا كوادر مصرية تقدر على إدارتها والعمل فيها.. وهذا ما أكدته التقارير والمعلومات. ولهذا فإن عبدالناصر كان يعد للأمر فى سرية تامة ويجهز ملفاتها عن طريق مكتب مختص فى مؤسسة الرئاسة.. أى ان النية كانت مبيتة والدراسات جاهزة.. أما التنفيذ فكان من الممكن أن يكون فى موعد لاحق.. لكن تداعيات مشروع السد عجلت به خاصة وأن مصر لم تكن تأخذ أكثر من عشرة فى المائة من ايرادات القناة.. أى أن هذا كان مشابهاً – من حيث المنهج – لتحديد موعد قيام الثورة الذى كان سيحدث فى موعد لاحق لعام ١٩٥٢ لكن جرى التعجيل به.. للتطورات التى وقعت فى مصر والمنطقة..

الثانية : انه فور أن نطق جمال عبدالناصر فى خطابه بميدان المنشية بالإسكندرية يوم ٢٦ يوليو ١٩٥٦.. هبت الجماهير التى كانت – بالآلاف

– تسمعه وتراه بالإسكندرية.. والملايين التى كانت تسمعه عبر أجهزة الراديو.. تهتف فرحة وتهلل مؤيدة.. وكان هذا وبكل المقاييس فعلا ديمقراطيا حيث أبدى الشعب رأيه فى استفتاء مباشر وعلنى.. ولا يمكن القول – كما قالوا وافتروا بعد ذلك – إنه يوجد تلقين للناس.. وترتيب مسبق..

فالقرار كان محاطاً بأعلى درجات السرية.. بل إن كبار القادة والوزراء أنفسهم لم يعلموا به إلا قبلها بساعات!

ولقد جرى تنفيذ القرار وخوض معركة التأميم فى ملحمة بطولية رائعة.. وتغلبت على كل المؤامرات والدسائس.. بحيث يمكن القول فى زهو وافتخار إن الرجال صنعوا المجد للوطن والأمة والدول المغلوبة على أمرها.

ومما ساعد على الانتصار فى المعركة، وهذه مسألة مهمة، هو – كما قيل – إن قرار التأميم قد نص على تعويض أصحاب الأسهم تعويضاماليا حسب اقفال بورصة باريس فى اليوم السابق للتأميم – أى حسب القانون – واحترام كل الاتفاقات الدولية، وحقوق العاملين واستمرارهم.. وهذا لا يعنى استيلاء مصر على القناة وإنما استرداد حقها المسلوب.. واستعادة إدارتها لمرفق مهم لها دفعت فيه ثمناً غالياً بدءاً من حفر المجرى الذى حصد أرواح مائة وعشرين ألف مصرى شقوا المجرى بالفئوس وبأظافرهم وجهزوه بآلات بدائية.. إلى الاستدانة من الأجنبى وسيطرته على اقتصاد الدولة.. إلى الاستعمار والحروب.. وما إلى ذلك من تضحيات كانت تحتم استرداد الحق.

وهذا هو الدرس المستفاد. وهو مجمل القيمة السياسية الأساسية التى تعلمها المناضلون وشدت من أزرهم ودعمت خطاهم وهم يتحركون لتحرير أوطانهم.. وشهد بهذا وقاله زعماء مثل نلسون مانديلا فى جنوب إفريقيا

وكينياتا فى كينيا وسيكوتورى فى غينيا ولومومبا ونكروما فى الكونغو وغانا.. ومثل كاسترو وجيفارا فى كوبا وبيرون فى الأرجنتين والليندى فى شيلى وغيرهم فى دول العالم الثالث..

وهذه القيمة هى التى ينبغى أن تشمخ الآن.. وتنتصب.. ونحرص عليها ونحن – أعنى شعبنا العربى تحديداً – يواجه المشروع الأمريكى للسيطرة والهيمنة ويتحالف معه المشروع الصهيونى بعد أن تعاظم النفوذ اليهودى الصهيونى الذى حذر منه الرئيس الأمريكى بنيامين فرانكلين منذ نحو قرن ونصف قرن من الزمان حيث خاطب أعضاء الكونجرس فيما يشبه خطبة الوداع محذرا من زيادة عدد اليهود قائلا : لا تتركوهم يتزايدون.. وإلا سيطروا عليكم بعد مائة سنة!

وتحقق ماقال..

وتحالف اليمين المسيحى الحاكم مع الصهاينة.. وفيما نعتقد فإنه تحالف مؤقت.. فإذا كان هدفهما الآن واحداً ومشتركًا وهو تفتيت هذه الأمة العربية لاستنزاف مواردها وتحويلها إلى سوق استهلاكية لمنتجاتهم والسيطرة على مواقعها الاستراتيجية – وهدم الحضارة الإسلامية بما لها من تراث ودستور منظم – بل وهدم المسيحية الأرثوذكسية والقبطية تحديدا.. وبالتالى هدم قلب الدول النامية..

أقول.. إذا كان المشروعان الأمريكى والصهيونى – وهما الوحيدان البارزان فى العالم حاليا – يتفقان على هذا الهدف.. الآن. فإنهما يخفيان تناقضًا حاداً بل وأساسيًا سيبرز مستقبلا وعلينا إذا أنصفنا مع أنفسنا أن نفضحه على التو واللحظة.. وباستمرار.. وهذا التناقض الجذرى.. مزدوج:

– من حيث المعتقد فإن المسيحية – وأيا كان المذهب – تتناقض وبالذات مع اليهودية الصهيونية المتطرفة التى ترى أن أتباعها هم وحدهم

الشعب المختار الذى يجب أن يسود كل العالم.. أما الآخرون – وأيا كانوا – فهم كفار.. عبيد!

– ومن حيث السياسة فإن المشروع الأمريكى يهدف إلى السيطرة والهيمنة بإمبراطورية واسعة كبرى على العالم كله انطلاقا من السيطرة على منطقة مايسمى – فى وجهة نظرهم – الشرق الأوسط الكبير الذى تذوّب فيه العروبة ومعتقداتها.. وباعتبار أن من يستولى عليه.. يمكنه بسهولة السيطرة على العالم.. ومنذ أكثر من قرنين من الزمان قالها بونابرت أن من يسيطر على مصر والقناة يسيطر على الدنيا!

لكن – وهنا التناقض الجذرى – فإن المشروع الصهيونى بدوره يستهدف إقامة إسرائيل الكبرى من النيل إلى الفرات مبتلعا لبنان وسوريا والأردن.. ليجعل هذه الدولة منطلقا للسيطرة على العالم.

إذن.. من منهما سيلتهمنا أولا.. ثم سيسيطر ويسود؟

وهل نظل نحن العرب نقول هذا.. ونكتفى بترديده.. دون فعل؟

هل نكتفى بمقاعد المتفرجين.. مع أننا الضحايا؟

واسمحوا.. لى هنا أن أتجاوز المنطق الأكاديمى.. وأهتف : فليسقط المتفرجون!

واسمحوا لى القول.. إنه إذا اتفقنا على القيمة الأساسية الناتجة عن القرار العظيم لتأميم القناة.. والمعنى المستخلص منها.. فإنه يتحتم علينا ان نتحرك دفاعا عن الوطن والأمة.. عن شعوبنا وأجيالنا القادمة.. وعن الحياة نفسها..

إن التحرك فرض عين علينا.. وهو أمر محتم على النخبة والطليعة.. دون تردد ودون تخاذل.. دون يأس.. ودون انتظار.

طبول الحرب



• وثائق العدوان الثلاثى

وأسرار وثيقة سيفر

إن بداية العمل العسكرى للجولة العربية - الإسرائيلية الثانية الشهيرة بحرب السويس كانت صباح ٢٧ يوليو ١٩٥٦ - أى اليوم التالى مباشرة لإعلان الرئيس جمال عبدالناصر لتأميم قناة السويس - وذلك عندما جمع سير أنتونى إيدن - رئيس وزارة بريطانيا وقتها - رؤساء أركان حرب المملكة المتحدة وطلب منهم : إعداد خطة لعمل عسكرى يستهدف انتزاع القناة من مصر..

لقد كانت الاستراتيجية فى هذا اليوم - ٢٧ يوليو ١٩٥٦ - تعتمد على أن تتولى بريطانيا العمل وحدها ضد مصر - وإذا قبلت فرنسا الاشتراك فلتكن مساهمتها بقوات رمزية، فإن بريطانيا كانت تريد أن تسترد وحدها هيبتها الضائعة فى الشرق الأوسط.. كذلك كان فى تخطيط القيادة الإنجليزية الاعتماد على تعضيد من الولايات المتحدة الأمريكية تتمثل فى قيام الأسطول السادس الأمريكى الموجود فى البحر الأبيض بتغطية إستراتيجية للعمل العسكرى الإنجليزى، وذلك بتأمين القتال ضد احتمالات التدخل من جانب الاتحاد السوفيتى..

وعلى هذا الأساس وضع رؤساء أركان حرب الإمبراطورية خطة الغزو باسم «العملية ٧٠٠» وهى تدخل فى نطاق الحروب المحلية المحدودة.

وقد دارت مناقشات كثيرة أثناء وضع هذه الخطة عن مكان إنزال قوات الغزو.. وتأرجحت الأفكار بين الإسكندرية وبور سعيد.. وأخيراً تغلب الرأى القائل بأن الإسكندرية هى أنسب مكان لإنزال قوات الغزو.. واصبحت العملية بالتالى عبارة عن غزو بحرى للإسكندرية تتلوه معركة على الاتجاه الاستراتيجى الإسكندرية – القاهرة يتم فيها تدمير القوات المصرية.. وبعد ذلك تحتل قوات الغزو القاهرة لتسقط الحكم الثورى القائم بها..

وعندما عرضت هذه الخطة على سير إيدن فى أغسطس كان من الطبيعى أن يرفضها، إذ أنها تقتضى احتلال مصر كلها الأمر الذى سيستغرق وقتًا طويلا.. بينما كان سير إيدن يرغب فى توجيه ضربة حاسمة سريعة.. وفى هذا الوقت عرضت فرنسا مساهمتها الكاملة وأبلغت بريطانيا أنها على استعداد لتقديم قوات بنسبة ٣ : ٥.. وقبل إيدن اشتراك الفرنسيين بأمل تحقيق عاملى : الحسم والسرعة.

كيف اشتركت إسرائيل؟

وفى هذه المرحلة عرضت فرنسا على بريطانيا فكرة إشراك إسرائيل فى الغزو.. ومن الجدير بالذكر هنا أن نبين علاقة فرنسا بإسرائيل فى ذلك الوقت.. وفى الواقع فإنه لم يكن هناك فى يوم من الأيام رباط قوى بين فرنسا وإسرائيل سوى ذلك الشعور بالعطف الذى أعقب الحرب العالمية الثانية واتجاه زعماء الصهيونية للتقرب إلى الدول الكبرى.. على أن السبب الأهم والأول كان هو: تزايد عداء العرب للسياسة الاستعمارية الفرنسية فى شمال إفريقيا وبزوغ المقاومة الجزائرية ومن ثم فقد بدأت فرنسا تلقى

بالتبعة على مبادئ القومية العربية وتعتقد أن القاهرة هى الموجهة والمثيرة للعداء العربى، وحاملة راية التحرر والحرية ولذلك كله تلقفت إسرائيل الفرصة وأخذت تقترب من فرنسا وتبارك المشاعر الخبيثة التى تولدت فى فرنسا نتيجة تقلص سيادتها الاستعمارية على شمال إفريقيا.. كما أخذت إسرائيل تؤكد لفرنسا أنها ركيزتها وسندها الأول فى الشرق الأوسط وأن كلتيهما له عدو واحد وهو القاهرة وإذا تمكنا من تدمير القاهرة فسوف تحل كل مشاكلهما.. وصدقت فرنسا التى كانت تتخبط فى سياستها فى تلك الأيام وانهال السلاح الفرنسى على إسرائيل وبدأ عهد جديد بين فرنسا وإسرائيل اتسم بالتعاون الشديد.

ولكن عندما عرضت فرنسا على بريطانيا إشراك إسرائيل رفض سيرإيدن رغبة منه فى ألا تظهر دولته أمام العرب فى صورة الدولة المتواطئة مع إسرائيل مما قد يهدد المصالح البريطانية الكثيرة فى العالم العربى.

وقدم البريطانيون إلى الفرنسيين خطة «العملية ٧٠٠»، فوافق عليها الفرنسيون.. ودارت دراسات بين قادة الجانبين لتحديد حجم القوات التى ستشترك فى الغزو من الجانبين ولتخصيص واستخدام قواعد الهجوم وبدء القيادة المشتركة وكيفية تنفيذها.. وقد اتفق على أن يتولى الجنرال تشارلز كيتلى (الإنجليزى) القيادة العامة للحملة بينما يتولى الأدميرال الفرنسى بارجوت منصب نائب القائد العام.. وبالمثل اتفق على أن تكون القيادة للبريطانيين والنيابة للفرنسيين فى كل فرع من أفرع العمليات والخدمات والقوات..

وسميت الخطة بعد اتفاق الجانبين «هاميلكار» وتقرر أن تنتهى الاستعدادات ويبدأ الهجوم فى منتصف سبتمبر.. وأخذت القوات البريطانية

والفرنسية تتجه إلى قاعدتي الغزو والتي أصبحتا «مالطة وقبرص» كما أمرت القوات بأن تضع «حرف : هـ – H» وهو الحرف الأول من اسم هاميلكار فوق خوذها وعلى أسطح عرباتها وطائراتها، ولكن وقبل أن يجف الطلاء صدرت الأوامر بتغيير الخطة «هاميلكار» إلى الخطة موسكتير (١).

* * *

لقد بنيت الخطة موسكتير (١) على نفس أسس الخطة هاميلكار من ناحية التصميم على أن تكون الإسكندرية هي مكان الغزو وأيضا على أن يكون ميعاد الغزو يوم ١٥ سبتمبر إلا أن خطة موسكتير فاقت في تفصيلاتها خطة هاميلكار واستندت على ضرورة توفير السيطرة الجوية بمهاجمة المطارات المصرية أولا وقبل أن يبدأ الغزو بيومين ثم على ضرب ميناء الإسكندرية بالأسطولين الإنجليزي والفرنسي في يوم الغزو وإنزال قوة مظلات يتلوها إنزال القوات البرية المشتركة.. وقد استمر الهدف الرئيسي أيضاً وهو الاستيلاء على القاهرة بعد تدمير القوات المصرية وبالتالي إسقاط نظام الحكم التحرري الثوري.

وفي ١٥ أغسطس أقرت الحكومتان الخطة وبدأتا في إرسال القوات.. ولكن سرعان ما دب الخلاف بين البريطانيين والفرنسيين حيث رغب الفرنسيون في القيام بهجوم مندفع بينما رغب البريطانيون في أن يكون الأسلوب هو الأسلوب التقليدي البريطاني البطيء والذي يميل إلى استخدام خطط وضعت من قبل لحالات مماثلة.. كما اعترض الفرنسيون على اختيار منطقة الإسكندرية كمنطقة نزول لقوات الغزو..

لكن .. متى اشتركت إسرائيل؟

وفي ذلك الوقت بدأت فرنسا تسفه موسكتير (١) وترى وجوب إدخال إسرائيل وبذلك يسهل استدراج الجيش المصري إلى سيناء الأمر الذي يخلق

فراغا فى منطقة القناة وبذلك يمكن للقوات الأنجلو – فرنسية سرعة احتلال القناة وايقاع القوات المصرية بين المطرقة والسندان.. وفى الوقت نفسه يخلق اشتراك اسرائيل ذريعة التدخل للدولتين اللتين سيظهران كأنهما يرغبان فى تأمين منطقة القناة والفصل بين المتحاربين!

* * *

وأخيراً وافقت بريطانيا على إشراك اسرائيل.. وقد تم ذلك فى المؤتمر الذى عقد بلندن يومى ١٠ و١١ سبتمبر وعليه الغيت الخطة موسكتير (١) وظهرت الخطة موسكتير المعدلة والتى غيرت مكان الغزو من الإسكندرية إلى بورسعيد يتلوه زحف مشترك نحو الإسماعيلية ومن ثم تتجه القوات البريطانية إلى «أبو صوير» بينما تتجه القوات الفرنسية إلى السويس. وبعد ذلك يوجه الطرفان ضربة موحدة تجاه القاهرة.. بينما كان على إسرائيل استدراج القوات المصرية إلى سيناء ثم تدميرها هناك بمعاونة القوات الجوية الانجليزية والفرنسية.

* * *

وفى ١٨ سبتمبر وصلت الخطة إلى تل أبيب وانتهز بن جوريون الفرصة وسرعان ما طالب بتدعيمات تمثلت فى كميات كبيرة من الأسلحة والمعدات وزيادة المعونة الجوية والبحرية البريطانية لإسرائيل مع ترك تحديد بدء العدوان لإسرائيل.. وفى ٢٠ سبتمبر وافق على ذلك وأصبحت الخطة تعرف باسم الخطة موسكتير المعدلة النهائية.

* * *

وفى ٢٢ أكتوبر طار بن جوريون لباريس حيث أخذ يطالب بضمان على شكل معاهدة يوقعها الأطراف الثلاثة..

وتتم الاتصالات..

وفى يوم ٢٤ أكتوبر وبرحلة سريعة تسلك الطرق والشوارع المهجورة مضى المتآمرون – بعيداً عن العيون – إلى سيفر (إحدى ضواحى باريس) يناقشون ثم يوقعون المعاهدة التى تفضح التواطؤ وتحمل ذات الاسم.. وهذا هو نص المعاهدة بالحرف :

«لا تنشر إلى الأبد

بروتوكول سيفر

٢٤ أكتوبر سنة ١٩٥٦

* تقوم القوات الإسرائيلية بخلق حالة صراع مسلح على مشارف قناة السويس لتستغلها بريطانيا وفرنسا كذريعة للتدخل العسكرى ضد مصر.

* توفر القوات الجوية الفرنسية الحماية الجوية لإسرائيل، كما توفر القوات البحرية الفرنسية الحماية البحرية للمياه الإقليمية الإسرائيلية».

* تصدر بريطانيا وفرنسا إنذاراً مشتركًا لكل من مصر واسرائيل لوقف أعمال القتال والابتعاد عن القناة، مع قبول مصر احتلال منطقة القناة احتلالا مؤقتا بواسطة القوات الانجلو فرنسية لحماية الملاحة البحرية فيها.

* تقوم القوات الجوية البريطانية بتدمير المطارات والطائرات والأهداف العسكرية المصرية وتحقق السيطرة الجوية فى سماء مصر.

* تدافع فرنسا عن موقف إسرائيل فى الأمم المتحدة وفى الوقت نفسه تبذل بريطانيا جهودها بصفة سرية بالاتصالات الخاصة لمساندة إسرائيل دون أن تكشف علانية عن ذلك حتى لايضار مركزها فى الوطن العربى».

● **توقيعات :**

عن المملكة المتحدة	عن الجمهورية الفرنسية	عن دولة إسرائيل
باتريك دين	كريستيان بينو	دافيد بن جوريون
المستشار القانونى	وزير خارجية	رئيس الوزراء
للحكومة	فرنسا	ووزير الدفاع

واتفق على ان يحافظ كل طرف بنسخته ولايظهرها أبدا..

وقد حصل بن جوريون على الاتفاق بسرور بالغ وعاد فى ذات اليوم إلى إسرائيل لتبدأ خطوات العمل التنفيذية، ففى اليوم التالى مباشرة وأنا أنقل هذا عن موشيه ديان (يوميات معركة سيناء) :

«.. وبعد المباحثات الداخلية الكثيرة، وبعد الاتصالات والتفسيرات مع العناصر الخارجية التى بدأت منذ حوالى شهرين، يمكن اليوم تلخيص الأمور التالية : –

١ – أقر بن جوريون رئيس الحكومة ووزير الدفاع مبدئيا خطة المعركة وأهدافها.

٢ – ستبدأ قواتنا عملها يوم الإثنين ٢٩ / ١٠/ ١٩٥٦ مع الظلام وعلينا أن ننهى احتلال شبه جزيرة سيناء خلال ٧ – ١٠ أيام.

٣ – القرار على المعركة وكذلك تخطيطها يعتمدان على فرض أنه من المنتظر أن تعمل قوات بريطانية وفرنسية ضد مصر.

٤ – ومن المعلومات الموجودة لدينا فإنه من المنتظر أن تقوم القوات البريطانية والفرنسية بعمليتها يوم ١٩٥٦/١٠/٣١ وهدفها السيطرة على

منطقة قناة السويس، ولهذا يجب عليها النزول من البحر أو إسقاط قوات من الجو وستكون هذه العمليات بالطبع تحت تغطية جوية مناسبة.

* ونلاحظ على كلام ديان مايلي :

– إنه نتيجة لاتفاق سيفر تحددت عمليات إسرائيل يوم ١٠/٢٩ وذلك دون ان يذكر صراحة اتفاق سيفر أو ماهى الاتصالات الخارجية؟

– انه ونتيجة لاتفاق سيفر تحددت عمليات إسرائيل يوم ١٠/٢٩ ولان الاتفاق كان يوم ٢٤ وسيبدأ التحضير الجوى فى اليوم التالى وإسرائيل تستغرق ٤ أيام لإعلان التعبئة العامة.

– يعترف ديان بنوعية العمل العسكرى الإسرائيلى (وبسرعة تم الاحتلال) ذلك لأنه كما يقول فى موضع آخر..، نحن لا نستطيع أن نواصل الحرب لأكثر من أسبوعين،.

وفى نفس هذا اليوم ١٠/٢٥ وضع موشيه ديان بصفته رئيسًا لهيئة الأركان العامة الرتوش النهائية لخطة قادش ثم وقعها وأرسلها إلى القادة وأبرزهم : ،دان تلكوفسكى، قائد القوات الجوية و،صموبل تانكوس، قائد القوات البحرية و،إساف سمحونى، قائد القوات البرية وإلى رئيس شعبة العمليات.. وهذا الأخير ننقل – طبقاً للوثائق الإسرائيلية – نص ما أرسل إليه :

للمرسل إليه فقط

إلى رئيس شعبة العمليات

● **الموضوع** : توجيهات عمليات الغرض :

● **الغرض:**

(أ) خلق تهديد عسكرى على القناة باحتلال مواقع مجاورة لها.

(ب) احتلال مضايق إيلات (أى خليج العقبة).

(ج) إحداث ارتباك فى تشكيل قتال القوات المصرية الموجودة فى سيناء..

● **الطريقة :**

(د) عام :

يوم ع (أى يوم بداية العمليات) : يوم الإثنين ٢٩ أكتوبر سنة ١٩٥٦.

● **ساعة الهجوم** : الساعة ١٧٠٠.

(هـ) المراحل:

١- المرحلة الأولى: (٣) ليلة ع (١٠/٣٩ - ١٠/٣٠)

وكانت هذه هى المهمة المباشرة للمنطقة الجنوبية:

(أ) احتلال تقاطع الطرق عند صدر الحيطان باستخدام قوات ابرارجوى.

(ب) احتلال نخل.

(ج) احتلال الكونتلا ورأس النعيت.

(د) تأمين مدخل القصيمة - نخل.

(هـ) تأمين محور الكونتلا - نخل.

(و) تأمين محور رأس النقب - نخل.

(ز) تستعد القيادات الأخرى (خلال قيادة المنطقة الجنوبية للدفاع أول ضوء يوم ٣٠ أكتوبر).

(ح) يستعد سلاح الطيران والسلاح البحرى استعداداً تامًا ابتداءً من ساعة الهجوم لتنفيذ ما يكلفان به من مهام بالأسبقيات التالية:

- الدفاع عن سماء البلاد.

- مساندة القوات البرية.

- مهاجمة المطارات المصرية.

٢- المرحلة الثانية (ب) : فى ليلة ع + ١ (١٠/٣٠ - ١٠/٣١)

(أ) التقدم فى محور رأس النقب - شرم الشيخ.

(ب) الاستعداد لصد الهجوم المضاد من القطاع الأردنى.

(حـ) الاستيلاء على القصيمة.

(د) الاستعداد للدفاع عن الحدود الإسرائيلية المتاخمة لسوريا ولبنان.

٣- المرحلة الثالثة (ج) ليلة ٤+٢ (١٠/٣١ - ١١/١) والأيام التالية:

(أ) احتلال مضايق إيلات.

(ب) احتلال رفح وأبى عجيلة والعريش.

(ج) تأمين طريق الاقتراب من صدر الحيطان - الطور - وفتح محور إلى شرم الشيخ.

(د) فتح محور أبى زنيمة إلى دهب.

(هـ) التقدم إلى صوب القناة والتشبث بخط يبعد عنها بما لا يقل عن ١٥ كيلو متراً.

ثم تتوالى الأحداث بعرض بن جوريون الخطة على وزارته يوم ٥٦/١٠/٢٨ ويذيع بياناً مخادعًا يقول فيه «التعبئة جرت عقب النشاط

المعادى العربى فلا نقف أمام هجوم مفاجئ بدون دفاع كاف «ويطرد ديان مراقبى الأمم المتحدة من بير سبع والعوجة .. يقول «كان خيراً لنا أن **يتقدموا بشكوى ضدنا للأمم المتحدة من أن يشاهدوا تحركاتنا ويبلغوا عنها» ..**

ويأتى يوم ٢٩ أكتوبر وتدق القلوب انتظاراً لما سيحدث.

•يوميات القتال على مدى ٢٠١ ساعة

لاشك أن كشف حقيقة ما جرى يستلزم منا متابعة يوميات القتال بأمانة تستند إلى الوثائق العسكرية المصرية والإسرائيلية، وهذا يؤدى إلى تعرية الموقف أو - بتشبيه أدق - رفع الغطاء عن الطعام الفاسد الذى صنعه الطباخون الأنجلو - فرنسى - إسرائيليون.

وبداية.. نقول إن القتال بدأ فى الساعة الخامسة بعد ظهر يوم ٢٩ أكتوبر وامتد على مدى ٢٠١ ساعة حتى صدر قرار مجلس الأمن بوقف إطلاق النيران فى الساعة الثانية فجر يوم ٧ نوفمبر.

وقد كان دور إسرائيل أثناء القتال هو - طبقاً لتوجيهات القيادة العامة الإسرائيلية - «القتال على المجهود الثانوى داخل سيناء وغزة بهدف خلف تهديد عسكرى على القناة».

أما دور القوات الإنجليزية الفرنسية فكان القتال على المجهود الرئيسى بشن غزو بحرى على امتداد الخط التعبوى - الاستراتيجى - لقناة السويس وفيما يلى نص أمر عمليات الغزو البحرى الأنجلو فرنسى:

المهام:

بعد تمهيد جوى مركز ابتدائى لمدة ستة أيام، وتمهيد مباشر بالطيران وبمدافعية الأسطول من س – ٣ ، تقوم قوات الغزو المشتركة أول ضوء يوم ٩باقتحام منطقة بورسعيد والاستيلاء على رأس الشاطئ بها بمواجهة ١٠ كيلو مترات وعمق ٤٠ كيلو متراً كمهمة مباشرة لها على أن تتم يوم ١١، وتطور الهجوم وتستولى على منطقة الإسماعيلية يوم ١٢ كمهمة أساسية لها طبقًا للخطة (أ) أن تكون مستعدة لاستغلال النجاح لحسم الحرب بالاندفاع صوب السويس والقاهرة للاستيلاء عليهما وتحقيق المهام الأساسية طبقًا للخطة(ب).

التشكيل التعبوى لعملية الغزو البحرى ومهام القوات:

أ – نسق أول قوات الغزو البحرى:

١– قوة الاقتحام الجوى:

القائد: بريجادير بتلر قائد مجموعة اللواء ١٦ مظلات.

القوات: مجموعة اللواء ١٦ مظلات عدا كتيبتين وآلاى مظلات من الفرقة ١٠ مظلات.

المهام: اقتحام منطقة برسعيد جواً مع أول ضوء يوم ٩ – وتأمين مخارجها والاستيلاء على الأهداف الحيوية بها.

٢– قوة الاقتحام البرمائى:

القائد: الرير أدميرال هولاندمارتن.

القوات: مجموعة اللواء ٣ الفدائيين البحريين، رئاسة الفرقة ١٠ مظلات.

كتيبة مظلات من الفرقة ١٠ مظلات – أورطة دبابات خفيفة – ثلاث كتائب فدائيين بحريين.

المهام: الاستيلاء على رأس الشاطئ وتأمينه كمهمة مباشرة يوم ١١ بمواجهة ١٠ كيلو بمترات وعمق ٤٠ كيلو متراً وتطوير الهجوم والاستيلاء على منطقة الإسماعيلية كمهمة أساسية يوم ١٢ طبقاً للخطة(أ).

(ب) نسق ثانى قوات الغزو البحرى:

القوات اللاحقة:

القائد جنرال هيوستو كويل.

القوا ت: الفرقة ٣ مشاة. مجموعة اللواء ٥١ المشاة المستقل مجموعة اللواء ٥٠ المشاة المستقل، كتيبتان من مجموعة اللواء ١٦ المظلات، الآلاى ٦ المدرع، آلاء سيارات مدرعة، كتيبة مظلات من الفرقة الأجنبية الفرنسية، الآلاى الخفيف.

المهام: استغلال نجاح قوة الاقتحام البرمائى وتطوير الهجوم نحو القاهرة والسويس معاً للاستيلاء عليهما وحسم الحرب.

(ج) الاحتياطى العام:

القوات: الكتيبة الأولى رويال وست كنت – ٢ آلاى مظلات فرنسية.

ومن هذه الخطة العسكرية تتضح الأهداف السياسية والتى يمكن إجمالها فى الآتى:

١– الاستيلاء على قناة السويس.

٢– إبادة القوات المسلحة المصرية ومعداتها.

٣- القضاء على الحكم الثورى فى مصر الذى كان يساعد الثورة الجزائرية واحتلال مصر..

٤- إنهاء الحركات التحررية فى الشرق الأوسط والقضاء على القومية العربية.

٥- استعادة السيطرة على الوطن العربى.

٦- مراحل القتال:

على هذا النحو إذن كان دور الغزاة.. وكانت أهدافهم من القتال فإذا نظرنا إلى المجهود المصرى فإننا نجد أن القتال دار خلال ٤ مراحل استراتيجية.

المرحلة الأولى:

مرحلة حصر العدوان الإسرائيلى المدعم بالجهود الجوى والبحرى الأنجلو فرنسى، وقد استغرقت هذه المرحلة ٤٧ ساعة بدأت فى الخامسة مساء يوم ١٠/٢٩ وانتهت فى الرابعة مساء يوم ٣١ / ١٠ وفيها نجحت القوات المصرية فى حصر العدوان وتثبيته واستعدت لتدمير قواته نهائيًا تمهيداً لنقل المعركة إلى قلب إسرائيل ذاتها.

المرحلة الثانية:

مرحلة النضال من أجل تحقيق التوازن الاستراتيجى فى مسرح العمليات وقد استغرقت ٨٦ ساعة بدأت فى الساعة الرابعة مساء يوم ١٠/٣١ عندما تكشفت نوايا العدوان و.. انتهت فى السادسة صباح يوم ١١/٤ وخلالها صدر قرار توحيد الجبهة المصرية غرب قناة السويس فى الوقت المناسب لتحقيق الاتزان الاستراتيجى وتركيز قوى النضال فى مثلث (بور سعيد - السويس - القاهرة).

المرحلة الثالثة:

مرحلة الصراع فى اتجاه المجهود الرئيسى، وقد استغرقت ٦٨ ساعة من السادسة صباح يوم ١١/٤ حتى الثانية صباح يوم١١/٧، وكان الصراع المسلح فيها بين القوات البريطانية والفرنسية من جهة، وبين القوات المسلحة المصرية وقوى النضال الشعبى من جهة أخرى وكان القتال دفاعا عن العقيدة والأرض تحت شعار «الحرب من بيت إلى بيت».

المرحلة الرابعة:

مرحلة فشل العدوان الثلاثى، وقد استغرقت ١٢٠ يوماً بين ٧ نوفمبر سنة ١٩٥٦ – وقف إطلاق النار – وبين ٦ مارس ١٩٥٧ نهاية الانسحاب وتميزت هذه المرحلة بصمود الإدارة الممثلة فى الإنسان المصرى وتحفزه متأهباً لاى طارئ.

هذه هى مراحل القتال من وجهة النظر الاستراتيجية المصرية .. وهى – هنا – مقدمة نبدأ بعدها فى يوميات القتال .. وكيف جرى؟

اليوم الأول ٢٩ أكتوبر:

• المظليون الإسرائيليون.. ذريعة العدوان

اختارت القيادة الإسرائيلية منطقة «صدر الحيطان» بسيناء لتبدأ فيها أولى عملياتها تنفيذا لدورها فى اتفاق «سيفر» .. ولقد أثير فى هيئة الأركان الإسرائيلية أن» صدر الحيطان» بعيدة عن القواعد الإسرائيلية وهى فى ذات القوت قريبة من القواعد المصرية (نحو ٦٥ كيلو متراً من القناة) وتحت أنف مطار كبريت المصرى (نحو ٧٠ كيلو متراً) لكن ديان رد بأن المهمة هى: جذب الجيش المصرى إلى أعماق سيناء وترك قلب الدولة المصرى خالياً من القوات، وفى ذات الآن: خلق صراع مسلح على مشارف القناة.. كذلك فإن الهجوم سيكون تحت حماية مظلة جوية فرنسية، علماً بأن منطقة «صدر الحيطان» خالية من القوات المصرية.

وعلى هذا الأساس انطلقت فى الساعة الخامسة من بعد ظهر هذا اليوم (٢٩/١٠) أو بالضبط قبل تمام الخامسة بدقيقة واحدة ١٦ طائرة داكوتا منتظمة فى ٤ تشكيلات، كل منها يحمل سرية من جنود المظلات.

واتجهت إلى الهدف إلا أن الطيارين – طبقا ليوميات ديان – «أخطأوا وأسقطوا الجنود بالمظلات شرق المكان المحدد بخمسة كيلو مترات».

على أى حال لقد هبطت القوة وهى تضم ٣٩٥ فرداً بأمتعتهم وأسلحتهم ومعداتهم، وهؤلاء يشكلون الكتيبة ٨٩٠ مظلات، ثم سار الجنود على أقدامهم مسافة الخمسة كيلو مترات التى أخطأوها فوصلوا مكانهم المحدد فى الساعة السابعة والنصف مساء.. وفى الساعة التاسعة مساء أسقطت لهم الطائرات كمية من الإمدادات، وذلك قبل أن تأتى الطائرات الفرنسية المتعاونة وهى من نوع نورد أطلس لتلقى فى الواحدة منتصف الليل إمدادات جاء ت بها من قاعدة قبرص وهى عبارة عن ٨ عربات جيب و٤مدافع عديمة الارتداد ١٠٦ مم ومدفعين هاون ١٢٠ مم.. بالإضافة إلى صناديق الذخيرة اللازمة.

هذا وقد صدرت الأوامر لهذه الكتيبة بالتحصين فى موقعها بمنطقة «صدر الحيطان» دون أن تتقدم أو تتحرك حتى لا تتورط فى قتال مع القوات المصرية.

وفى العاشرة من مساء ذات اليوم – ٢٩ أكتوبر – تحرك اللواء ٢٠٢ مظلات الإسرائيلى، عبر الحدود المصرية عند الكونتلا بهدف مساندة كتيبة المظلات التى أسقطت فى صدر الحيطان.

خلال هذا الوقت، وعند ماأيقنت قيادة المنطقة الشرقية المصرية من بدء العدو عملياته الغادرة أصدرت أوامرها بالسيطرة على ممر متلا، وسرعة القضاء على القوة المعادية المسقطة مع تعطيل تقدم القوات البرية المعادية التى تنضم إلى القوة المسقطة، وقد كلف بالمهمة الأولى اللواء الثانى المشاة «كتيبة مشاة» أما المهمة الثانية فقد كلف بها الآلاى الثانى حدود كما أمرت قيادة المنطقة الشرقية المصرية: قوتها الاحتياطية بالاستعداد لعبور قناة السويس والتحرك غرباً بهدف القضاء على قوات العدو الإسرائيلى.

وفى الساعة الحادية عشرة بدأت وحدات اللواء الثانى المشاة المصرى فى عبور القناة متجهة إلى صدر الحيطان عبر ممر متلا .. وقد استغرقت عملية العبور وقتًا طويلا اذ لم تنته إلا فى الساعة الثالثة بعد ظهر اليوم التالى٣٠/ ١٠، وكان السبب فى ذلك أن مصر رأت عدم تعطيل الملاحة فى القناة والعبور فى الفواصل التى تتخلل عبور قوافل السفن، مستخدمة فى ذلك «المعدية» .. وقد استطاعت العناصر المتقدمة من اللواء المصرى أن تصل إلى المدخل الشرقى لممر متلا فى نحو الساعة الثامنة صباحا.

اليوم الثانى ٣٠ أكتوبر:

• ملاحم فى سيناء..
وإنذار مرفوض!

طلعت شمس هذا النهار على وحدات اللواء الثانى مشاة المصرى وهو يستكمل عبوره، وفى الساعة الخامسة صباحًا وصل اللواء ٢٠٢ مظلات الإسرائيلي إلى «التمد» التى كان فيها عناصر من الآلاى الثانى التابع لسلاح الحدود المصرى مزودين بأسلحة خفيفة إذ تنحصر مهمتهم فى القتال التعطيلى، ورغم صغر حجم قوة الحدود المصرية أمام القوة الإسرائيلية المتفوقة عدداً وعدة، إلا أن الإنسان المصرى هنا أبرز كفاءة ممتازة فى القتال الصامد الانتحارى وفق مبدأ «لن يمر العدو إلا على جثثنا» .. يقول ديان فى يومياته عن «معركة التمد» لقد جرى فيها قتال حقيقى، ويقول الكاتب الصهيونى «روبرت هنريك» فى كتاب «مائة ساعة إلى السويس»وصل الطابور – الإسرائيلى – فى الفجر وصدرت الأوامر إلى جنود المشاة بالتقدم متباعدين عن بعضهم فى خطوط منتظمة على جانبى الطريق وباقى الطابور من خلفهم متباعداً أيضًا. وأطلق المصريون النيران

من أعالى المنطقة، وجرح القائد - الإسرائيلى - من جراء لغم ورغم ذلك أمر الطابور أن يتقدم على أن يحميه بسحب الدخان».

وهكذا جرى القتال، كان بطله إنسان مصر الذى عرف أن إمكاناته أقل من العدو - حجمًا وسلاحًا وذخيرة - ورغمها ظل يقاتل ويقاوم .. ولم يستطع الطابور الإسرائيلى أن يستولى على الموقع إلا بعد استشهاد معظم أفراد القوة المصرية الأمر الذى يدل على صلابة وشجاعة هذه القوة واستبسالها فى القتال.

وبينما كان القتال يجرى فى «التمد» كانت أربع طائرات ميج ١٥ مصرية تلقى قذائفها على أفراد كتيبة المظلات الإسرائيلية فى صدر الحيطان.. مما كبدها خسائر جسيمة دفعت قائدها إلى أن يبعث برسالة عاجلة لقائد اللواء ٢٠٢ مظلات يقول فيها كما جاء فى كتاب «مائة ساعة إلى السويس»: «تعرضنا لعدة هجمات جوية نجم عنها عدد من القتلى.. وحاولنا صد الضرب بمدافعنا .. نفكر فى إجراء هجوم عندما يحين الليل، نتوقع هجوماً علينا، نطلب نجدات جوية عاجلاً».

لكن قائد الآلاى ٢٠٢ كان هو الآخر فى موقف حرج، إذ بينما قواته تعيد تشكيلها بعد معركة التمد فوجئ بطائرتى ميج مصريتين تقصفانه بعنف فأسرع يأمر وحداته بالانتشار فى الجبل خوفاً وهرباً..

وقد تسلم القائد إشارة من قيادته تبلغه أنه يستطيع طلب المعونة الجوية ابتداء من الساعة الواحدة ظهرا. لكنه بعث برد سريع: نريد العون فوراً..

لكن المعونة لم تصله .. فأخذ يتجه إلى ممر متلا ..

وفى هذه الأثناء كان اللواء الرابع مشاة الإسرائيلى قد تحرك إلى القصيمة، وفى الساعة التاسعة والنصف صباحًا اشتبك هذا اللواء مع

الأورطة الثانية المدرعة الخفيفة المصرية التى كانت متمركزة فى القصيمة ومعها كتيبة من الحرس الوطنى.. وقد دار قتال عنيف بين الجانبين دفع الاسرائيليين نتيجة سوء موقفهم إلى الاستعانة باللواء السابع المدرع ليشترك فى المعركة التى استمرت حتى الظهر.

كما تحرك أيضًا اللواء العاشر المشاة الإسرائيلى من العوجة إلى «أم بسيس» ليؤمن هجوم اللواء السابع والثلاثين المدرع الإسرائيلى على «أم قطف» .. وأثناء تحركة فاجأته طائرات ميج مصرية بالضرب.

والجدير بالذكر هنا أن طائرات العدو لم تظهر فوق المعركة إلا فى الساعة الحادية عشرة صباحاً .. وهنا يقفز السؤال: لماذا تأخرت .. ولماذا لم تظهر منذ الصباح؟

يقول موشيه ديان فى «يوميات معركة سيناء» بالحرف: «لسبب ما لم يكن فى الجو أثناء الهجوم المصرى» الجوى أية طائرة من طائراتنا» ثم لا يشرح ديان هذا السبب الـ .. ما.

الحقيقة أن مهمة الحماية الجوية كانت معطاة للطائرات الفرنسية لكن خلال العمليات كان تنظيم التعاون بينها وبين القوات البرية الإسرائيلية صعباً للغاية مما أحدث ارتباكًا للقوات .. حتى أمكن تلافى ذلك فى وقت متأخر..

....

عند الظهر كان اللواء الرابع مشاة الإسرائيلى.. واللواء السابع مدرع الإسرائيلى قد تمكنا بعد جهد عنيف من القضاء على المقاومة المصرية فى القصيمة إذ انه كما قلنا لم يكن فيها سوى أورطة مدرعة خفيفة وكتيبة

حرس وطنى.. ونتيجة لذلك ألتجه اللواء السابع المدرع الإسرائيلى إلى أبى عجيلة التى كان متجهاً إليها أيضاً اللواء ٢٠٢ مظلات الإسرائيلى.

وفى الوقت نفسه كان الاحتياطى الاستراتيجى للقيادة المصرية يعبر قناة السويس على الاتجاهين الأوسط والشمالى...

* * ماذا حدث؟

فى ممر متلا .. كما يقول الصحفيان الفرنسيان «ميرى وسيرج بروميرجر» فى كتابهما «أسرار الحملة على مصر».

«اتخذت القوات المصرية مواقعها فى المغارات الكامنة على جانبى مدخل الممر .. وبدأ أفرادها يسلطون نيران مدافعهم على جنود المظلات .. ونشطت طائرات الميج مرة أخرى مما أوقع القوات الإسرائيلية فى مركز حرج .. وبالرغم من أنها قاتلت قتال المستميت، وبالرغم من مساعدة طائرات الميستير الفرنسية لها .. إلا أنها لم تتمكن من التقدم ولم تتمكن حتى من إجبار المصريين على ترك أماكنهم».

وهكذا ظهر الطيران المعادى – الإسرائيلى الفرنسى – ليساعد قواته البرية بعد أن وصلته نجدات كبيرة من قواعد خارجية فى قبرص كذلك ركز الطيران المعادى هجومه على القوات المصرية فى متلا . أما اللواء المدرع الإسرائيلى الذى وصل إلى أبى عجيلة فإنه وجد قتالا رهيبًا عبّر عنه ديان بقوله «**إن القوات المصرية حاربت بحالة جيدة جدًا فى الوقت الذى حاربت فيه قواتنا بصورة رديئة جدا، وقال فى موضع آخر من كتابه «يوميات معركة سيناء»:**

«لقد قاتلت القوات المصرية فى هذا القطاع قتالا جيداً، و «مع القيمة التكتيكية لخط أبى عجيلة فإنه تعذر احتلالنا لجزء منه حتى ولو فى البداية».

فى أبى عجيلة كان القتال مثيراً واستمر ٨٤ ساعة حتى انسحبت القوة المصرية بناء على أوامر القيادى فلقد كانت الروح المعنوية عالية رغم منشورات العدو التى طلب فيها الاستسلام، وقدم الإغراء بأن من يسلم نفسه سيعامل معاملة حسنة.

ورغم ذلك كله فإن القوة الإسرائيلية التى انضم إليها اللواء العاشر مشاة فشلت فى اختراق أبى عجيلة مما دفع قائد المنطقة الجنوبية إلى إعفاء قائد القوة وهو برتبة لواء من منصبه وإحلال آخر مكانه. وقد اعترف ديان وبهذا وقال إنه اعتمد هذا التغيير!!

* * *

ولقد شهد هذا اليوم أيضاً نشاطاً آخر للقوات الجوية المصرية، إذا انطلقت الطائرات المصرية أكثر من مرة لقصف قواعد العدو كما يلى طبقا للوثائق العسكرية المصرية:

* جرى ضرب مطار رامات دافيد خمس مرات: فى الساعة ٧,٤٥ مساء، وبعدها بربع ساعة، وفى الساعة الثامنة و٥٥ دقيقة، وفى التاسعة و٤٢ دقيقة والمرة الأخيرة كانت فى الساعة العاشرة مساء.

* جرى ضرب مطار عكير ثلاث مرات: فى الساعة ٧,٥٥ و ٨,٢٥ و ٨,٤٠ مساء.

* جرى ضرب مطار كاستينا مرة واحدة: فى الساعة الثامنة ودقيقتين مساء.

وكان الهجوم الجوى ناجحاً بصفة عامة، رغم الحماية الفرنسية الجوية، التى ساندت إسرائيلى طبقا لإتفاق سيفر وقد اعترف ديان نفسه بتدمير عدد من طائراته وهى على الأرض.

** الإنذار .. و ..المؤمراة:

خلال هذه العملية العنيفة، والشمس تسحب آخر خيط لأشعتها المبتلة من مياه القناة .. فى الساعة السادسة مساء أذاعت إنجلترا وفرنسا إنذارهما الشهير: قال الإنذار الموجه إلى مصر:

أن حكومتى المملكة المملكة المتحدة وفرنسا تطالبان الحكومة المصرية:

١- بوقف جميع العمليات الحربية فى البر والبحر والجو وخلافه.

٢- بأن تسحب جميع القوات المسلحة المصرية إلى مسافة عشرة أميال من القناة.

٣- بأن تقبل الاحتلال المؤقت للمواقع الحيوية فى بورسعيد والإسماعيلية والسويس بواسطة القوات الإنجليزية والفرنسية وذلك حتى يتسنى ضمان حرية مرور سفن جميع الدول عبر القناة وحتى يمكن الفصل بين المتحاربين.

أن حكومتى المملكة المتحدة وفرنسا تطالبان بالرد على هذا التبليغ فى خلال اثنتى عشرة ساعة، وفى حالة انتهاء هذا الوقت دون قيام إحدى الدولتين أو كلتيهما بالإذعان لتلك الطلبات فإن قوات المملكة المتحدة وفرنسا ستتدخل بالدرجة الكافية لضمان الإذعان».

كان هذا الإنذار يعنى لمصر: مؤامرةى خطيرة.. وقد عبر عنه زعيم الهند الراحل نهرو بقوله «لا أذكر عدوانا صارخًا يماثل فى بشاعته ما يحدث اليوم ضد مصر».

أما بالنسبة لإسرائيل فقد كان الإنذار - الموجه إليها بنفس الصيغة - يعنى أن تتقدم قواتها المتورطة فى قتال فاشل.. إلى قناة السويس، أو كما

يقول الإنذار إلى مسافة عشرة أميال منها رغم أنها كانت على مسافة بعيدة، أقربها فى صدر الحيطان حيث الكتيبة ٨٩٠ مظلات فى حالة سيئة لم يتحسن موقفها إلا فى العاشرة والنصف مساء عندما وصل إليها اللواء ٢٠٢ مظلات الذى كان يقصد مـتلا .. ولم يكد هذا اللواء يستريح حتى فوجئ بالآلاى الثانى استطلاع مدرع المصرى القادم من الإسماعيلية يصل إلى نطاقه ويشتبك معه، وقد تكبد المظليون الإسرائيليون خسائر فادحة عبر عنها ديان بقوله: «لقد دفعت وحدة المظلات الثمن الكامل من دمها «كان الموقف سيئا بالنسبة لإسرائيل على مستويين:

* عسكرياً ... فى مسرح العمليات.

* سياسياً ... فى دول العالم.

ولقـد أدى هذا الموقف، ورفض مـصـر الإنذار، إلى أن تتلقى القيادة المشتركة فى «أبسكوبى» بقبرص تعليمات عاجلة بإعداد خطة تعجل بالغزو البحرى الأنجلو - فرنسى لمصر بحيث يتم فى الأيام الأولى من شهر نوفمبر«٣ أو ٤ نوفمبر» أى قبل بدء الهجوم حسب توقيتات الخطة «موسكتير المعادلة».

وعلى هذا اجتمع جنرال كيتلى مع هيئة أركان حربه لوضع الخطة الجديدة..

اليوم الثالث ٣١ أكتوبر:

• قرار الإنسحاب بعد كشف التواطؤ

لم ينم أ حد ليلة أمس.. ظلت الأعصاب مشدودة، أرسلت إسرائيل إلى لندن وباريس - الحليفتين - توافق على الإنذار بينما أعلنت مصر رفضها .. وفتحت العيون حدقاتها على آخرها فى انتظار تنفيذ الإنذار مع السادسة صباحاً .. لكن جاءت السادسة ثم السابعة ولم ينفذ شيء..!!

هنا أسقط الأمر فى يد بن جوريون ..

إن قواته فى متلا يعبر عنها رئيس أركانه ديان بقوله: «لا داعى لأن أقول إلى أى مدى قد أسفنا جميعاً لهذه الخسائر الجسيمة التى تكبدناها فى معركة متلا .. ويغيظنى أننى لم أنجح فى أن تتوافر بينى وبين هذه القوات علاقة ثقة».

أما قواته فى أبى عجيلة فيقول ديان معبراً عن حقيقة الموقف:

«ولو كان قد تم فى هذه اللحظات هجوم مضاد مصرى لما استطاعت وحداتنا أن تصمد له».

وبسبب موقف القوات الإسرائيلية «السيئ» ولأن إنجلترا وفرنسا لم تنفذا الإنذار دارت الظنون بالسياسى العجوز دافيد بن جوريون الذى كان لم يزل يعانى من البرد، فتحدث مع ديان – كما اعترف الأخير فى يومياته – عن سحب القوات من سيناء .. مبتدئاً بسحب اللواء ٢٠٢ مظلات من متلا.

وبالفعل بدأ التحضير للانسحاب، لكن «ديان» الطموح أخفى كثيراً من موقف قواته عن بن جوريون وحتى يرضى طموحه وفى ذات الوقت يتماشى مع قرار بن جوريون بالتحضير للانسحاب .. قرر ديان:

وقف الأعمال التعرضية فى سيناء والاكتفاء بتأمين مواقع حول جبل لبنى والحسنة ونخل وهى عقد مواصلات، وذلك تمهيداً لسحب القوات أو لاستئناف حملة «قادش» – وهذا هو اسم خطة الهجوم الإسرائيلى – حسب موقف إنجلترا وفرنسا، أيضًا فإن قائد اللواء ٢٠٢ مظلات طلب الإذن من ديان عندما التقى به فى منطقة صدر الحيطان ليستطلع داخل ممر متلا بهدف شن هجوم مهم على القوات المصرية المتمسكة بالممر، وبالفعل بدأ الهجوم بكامل قوته فى الواحدة ظهراً إلا أن النيران المصرية صدته فتعثر وانسحب فى الثامنة مساء بعد أن تحطمت هيبته إذ أن هذا اللواء بالذات كان يتفاخر بشجاعته وكان هو الذى توكل إليه مهام ضرب القرى العربية المجاورة لإسرائيل.

وبالنسبة للموقف العسكرى المصرى.. فلقد استعدت القوات المصرية لشن هجوم مضاد ينقل المعركة إلى داخل إسرائيل طبقا لنظرية «ليس الغرض من الحرب هو الزج بالقوات فى معارك قتالية وإنما البحث عن مواقف استراتيجية تنجح فى قلب موقف العدو رأسًا على عقب» .. ولهذا فلقد قامت القوات المصرية بتأمين الاتجاهين الأوسط والشمالى مع استمرار

الاتجاه الجنوبى عند المدخل الشرقى لممر متلا فى وجه العدو .. واستكمال عمليات القوات الرئيسية لتوجيه الضربة المضادة الشاملة عن طريق هجومين:

* الأول: مع آخر ضوء يوم ١٠/٣١ بقوة لواءين من جيش التحرير الوطنى و.. أورطتى استطلاع ومجموعة لواء مشاة وكتيبة مظلات وسرية وذلك بغرض تدمير قوات إسرائيلية داخل مثلث: الحسنة – نخل – صدر الحيطان – وتأمين الهجوم الثانى.

* الثانى: على أول ضوء يوم ١١/١ فى اتجاه أبى عجيلة – العوجة بقوة فرقة مدرعة من مجموعتين مدرعتين ومجموعتى لواءين مشاة وعناصر استطلاع مدرع ومجهود جوى متفوق، بغرض القضاء على قوات إسرائيل الرئيسية فى الاتجاه الأوسط وتهيئة الظروف المناسبة لنقل الحرب داخل إسرائيل.

● بطولة المدمرة ابراهيم

فى هذا اليوم أيضًا – ١٠/٣١ – قامت البحرية المصرية بعمل مجيد ممثلا فى المهمة التى نفذتها بنجاح المدمرة المصرية إبراهيم.

إن قصة «إبراهيم» تستحق مزيداً من الاهتمام..

لقد كانت المدمرة المصرية، وهى إحدى قطع البحرية الممتازة راسية فى البحر الأبيض المتوسط أمام بورسعيد مع مجموعة أخرى من قطع البحرية وذلك منذ الساعة الثامنة من صباح يوم ٣٠ أكتوبر – ثانى أيام القتال – ولأنها كانت خلال الأربع والعشرين ساعة السابقة تقوم بعمليات مرور فقد ألقت مراسيها بجوار بيت البحرية فى ميناء بور سعيد وأعطى قائدها حسن رشدى أوامره لنظافة المدمرة وتموينها بينما اتجه هو وبعض

ضباطه إلى الميس لتناول الإفطار وإلقاء نظرة على صحف الصباح..

وفجأة دق جرس التليفون .. كان قائد قاعدة بورسعيد على الطرف الآخر يطلب الاجتماع فوراً بقائد «إبراهيم» .. وكان الاجتماع قصيراً .. فقد قال قائد القاعدة إن إسرائيل تهاجم سيناء .. وإن هناك غارات جوية متوقعة على قاعدة بور سعيد .. وعلى المدمرة «إبراهيم» أن تستعد..

وبدأت الغارات فعلا .. وأدت إبراهيم دورها . ثم توقفت الغارات .. ونزل أفراد الطاقم (١٥٠ ضابطا وبحاراً) لتناول طعام الغداء بعد موعده المقرر فى الأحوال العادية بثلاث ساعات..

كان على المائدة بطاطس وأرز ولحم..

وصاح الجميع: الله .. أمال فين السمان؟

وقال السفرجي: السمان للعشاء.

وعلى أحلام أكلة السمان فى العشاء تناولوا الغداء.. ولم يكن أحد منهم يعلم أن البطاطس سوف تكون آخر طعام له على ظهر المدمرة .. بل لم يكن أحد منهم يعلم أنه بعد دقيقة واحدة سوف لا يستطيع حتى أن يكمل طبق البطاطس..

وفعلا .. وبعد دقيقة واحدة قيل للقائد إن القيادة تطلبه من الإسكندرية فأسرع إلى التليفون ليدور بينه وبين رئيس أركان البحرية الحوار التالى:

– أريد أن أعرف درجة استعداد المدمرة؟

– مستعدة يا فندم.

– أنت حتكلف بعملية تشرف مصر، تشرف البحرية .. جاهز؟

– جاهز يا فندم..

– إذن رتب نفسك .. اخرج من الميناء ثم اتصل بى باللاسلكى. لا أريد أن يحس أى مخلوق أنك خارج فى مهمة طارئة .. قل إنه مرور عادى .. ولا تخرج من الميناء إلا عندما يحل الظلام.

وتم كل شيء فى هدوء.. ترك الضباط والجنود غداءهم .. بدأوا فى تجهيز المدمرة لعملية مرور سرية كما قال قائدهم .. وجرى كل شيء دون أن يلحظ أحد على الأرصفة.

وكانت خيوط الظلام قد بدأت تزحف على مدينة بورسيعد... وصعد قائد «إبراهيم» إلى برج المراقبة ونادى الباش ريس «خضرى» وهمس له أن ينفذ بمنتهى الدقة هذه الأوامر «سوف نخرج حالا.. اسحب العائمات بهدوء .. أطفئ جميع الأنوار . لا أريد حتى عود كبريت .. التعليمات تخرج من فمك إلى آذان البحارة .. لا نفخ فى البورى ولا صفارة».

ثم نزل الباش ريس خضرى ينفذ التعليمات..

وراجع القائد بنفسه كل شيء..

وخرجت المدمرة من الميناء وأ مر القائد أن تكون السرعة ٤٠ ميلا فى الساعة..

وفى هذه اللحظة أرسل إشارة لاسلكية عاجلة إلى: عمليات الإسكندرية «الخروج من الميناء الساعة ٧ وعشر دقائق (مساء) أوامركم».

بعد عشرة دقائق جاء الرد:

«اتجه شمالا بعد عشر دقائق جاء الرد أقصى سرعة، التعليمات باللاسلكى» وبعد عشر دقائق أخرى جاءت إشارةجديدة لكنها هذه المرة بالشفرة فنزل القائد مع ضابط الإشارة يحل رموز الشفرة.. وكانت التعليمات:

«تتوجه السفينة إلى ميناء حيفا، يصير ضرب المنشآت العسكرية وصهاريج البترول والسفن الراسية.. ابتدأ الضرب فى أول ضوء. وفقكم الله»..

ودخل القائد قمرته ..

وعلى الضوء الخافت نشر أمامه خريطة حيفا موضحا عليها جميع الأهداف ثم نادى ضابط الملاحة وراح يدرس معه السير والسرعة.. ثم أمر بعقد مؤتمر لكل الضباط حيث اطلعهم على المهمة وحدد معهم كيفية التنفيذ.. واقترح القائد أن يبدأ الضرب الساعة الثالثة صباحاً وأرسل برقية إلى عمليات الإسكندرية بهذا فوافقت.

وانتهى المؤتمر بعد ٤٥ دقيقة، فى لحظة تغير فيها خط السير من الشمال إلى الشمال الشرقى.

كان الهدوء شاملا.. وكانت المدمرة قطعة من الظلام تشق الموج وفجأة افتتحت مكبرات الصوت تذيع فى جميع أرجاء المدمرة..

«هنا القائد.. هنا القائد.. لقد كلفنا بمأمورية إذا تمت بنجاح كما نرجو بإذن الله .. فسوف يكون لها أثر عظيم فى شأن مصر وبحريتها وشأن مركبنا .. وقد كلفت اليوزباشى فرغل بأن يشرح لكم المأمورية بالتفصيل».

وأمسك فرغل بالميكروفون يعلن المهمة لأول مرة .. وانقلبت المدمرة إلى ساحة للمظاهرة .. تصفيق وهتاف يشتعل حماسة .. ثم عاد الصمت لينصرف كل واحد من الرجال .. إلى مهمته ..

وفجأة.

وفى الساعة الحادية عشرة والنصف تقريبًا اهتز مؤشر الرادار أمام اليوزباشى حسن نجاتى .. وظهرت على الشاشة ثلاثة أهداف : كانت الأهداف الثلاثة سفناً حربية..

وكانت تسير فى تشكيل حربى..

وكانت على بعد ١٨ ميلا جنوب المدمرة إبراهيم، على نفس خط سيرها لكن بسرعة أبطأ، وأبلغ نجاتى القائد الذى طلب أن تميل المدمرة قليلا نحو اليسار حتى يمعن فى التمويه وكأنه ذاهب إلى اللاذقية أو بيروت .. وفى الوقت نفسه استعد لأى طارئ..

ومرت دقائق، واتضح أن السفن الثلاث لم تر المدمرة أو ظنت أنها مركب تجارى فابتعدت عنها .. وواصلت إبراهيم مسيرتها ..

وفى الساعة الثانية صباحًا كانت على مسافة ٣٠ ميلا من الساحل الإسرائيلى وهنا غير القائد اتجاهه - لآخر مرة - بحيث أصبحت مقدمة المدمرة تتجه رأسا إلى ميناء حيفا .

وبعد نصف ساعة ظهرت حيفا شيئًا فشيئًا وارتفع صوت القائد ينادى الباش ريس خضرى الذى قفز من «إغفاءة» سريعة وقال له القائد:

- أمسك الدومات .. عايز أعصاب من حديد . السرعة على ١٢ عقدة بس ..

كانت هذه أول معركة للرجال .. لكل أفراد الطاقم..

وكانوا يتعجلون اللحظة الحاسمة..

دخلت «إبراهيم» بين عشرات من قوارب الصيد الإسرائيلية.. وأصبحت فى دائرة كشافات الضوء التى تمسح المياه للمراقبة .. لكنها استطاعت بمهارة شديدة من الرجال أن تفلت إلى خلف منطقة الضوء.. وأصبحت على بعد أربعة أميال فقط من أرصفة الميناء..

واستدارت لتصبح موازية للميناء الإسرائيلى..

واستدارت معها طوابى مدافعها الأربعة عيار ٤ بوصة.

كانت الساعة الثالثة و٣٥ دقيقة وصاح القائد :

– اضرب.

وانطلق الجحيم من مدافع المدمرة..

هنا يقول الصحفيان الفرنسيان «ميرى وسيرج برميرجر»:

«إن أجواء الفضاء فى سماء حيفا اهتزت فى الساعة الثالثة والنصف صباح يوم ٣١ أكتوبر على قصف المدافع وصوت صفارات الإنذار .. وأخذت النساء تدفع بأطفالهن إلى المخابئ الباردة التى لم يجف الأسمنت على جدرانها ونحو الأخاديد التى شقت فى الأرض للوقاية.

«وتجمع المستطلعون الذين كانوا لا يزالون يرتدون ثياب النوم يتساءلون من أين تأتى هذه القنابل .. وقد شاهد أهالى طريق بانوراما على جبل كارمل من خلال الظلام ومضات الضرب تأتى من جهة البحر .. وساد الذعر كل الميناء، كما انتشر الرعب فى كل الأنحاء فقد كانت مدن إسرائيل على موعد مع الموت».

واستمر الضرب.. خلاله أطلقت إبراهيم ٢٢٠ قنبلة مؤثرة .. وبعدها أمر القائد بالعودة.. وفى هذه اللحظات بدأت سفينة حربية فرنسية هى «كيرسانت» تطلق مدافعها الثقيلة على «إبراهيم» وكانت النيران دقيقة حيث إنها موجهة بالرادار .. وأدارت إبراهيم مدافعها تجاه مصدر اللهب المنبعث وأطلقت ٢٠ قذيفة بينما تتابع فى الوقت نفسه ابتعادها عن منطقة الميناء حتى استطاعت أن تخرج منها وأرسلت فى الساعة الرابعة صباحًا إشارة إلى عمليات الإسكندرية نصها:

«تمت العملية بنجاح .. نريد حماية جوية، يصير إرسالها بسرعة لخطورة الحالة».

وجاء الرد من العمليات:

«استمر بأقصى سرعة للغرب».

وانطلقت إبراهيم تجاه بورسعيد، وفى حوالى الساعة الخامسة والنصف ظهرت على شاشة رادار إبراهيم مدمرتان وكانت المدمرتان المعاديتان على مسافة ١٢ ميلا يسار إبراهيم وبالإشارة الضوئية سألت سفينة القيادة منها: إبراهيم عن جنسيتها واسمها لكن إبراهيم لم ترد فهى قد عرفت أن المدمرتين من طراز (Z) وأن تسليح كل منهما أقوى منها وسرعتها أكبر .. فالمدمرة (Z) تتميز بالآتى:.

- سرعتها ٣٢ عقدة بينما سرعة إبراهيم ٢٤ فقط .

- لديها ٤ طوابى مدفعية ٤ بوصة ونصف بوصة مفرد وعند إبراهيم طابيتان مدفعية ٤ بوصة مجوز.

- مدى مدفعيتها ٩ أميال ونصف ميل، ومدى مدفعية إبراهيم ٨ أميال فقط.

- عليها ٨ أنابيب طوربيد ٢١ بوصة، وإبراهيم غير مسلحة بهذا .

- معها ٨ مدافع ٤٠ ملليمتراً و٤ قذائف أعماق، ومع إبراهيم مدفع واحد مزدوج ٤٠ مم وقذيفتان للأعماق فقط.

واقتربت المدمرتان .. وأعادتا السؤال .. وردت إبراهيم: من أنتم .. وماجنسيتكم؟.

وكان الرد قذائف مدفعية مستمرة على إبراهيم..

ودارت معركة ..

وأصيب قائد إبراهيم فى يده ..

واقتربت المدمرتان إلى مسافة ٨ آلاف ياردة تقريباً من إبراهيم.

وفى السادسة إلا ربع ظهرت فرقاطة معادية انضمت إلى المدمرتين فى المعركة ضد إبراهيم الوحيدة..

وفى السادسة و٤١ دقيقة جاءت ٣ طائرات ميستير تنقض على «إبراهيم» واحدة بعد الأخرى...

وبعد ساعتين من المعركة أصيبت إبراهيم بإصابات بالغة أعجزتها عن الحركة بينما نفدت ذخيرتها تماما وأصبحت عاجزة كلية أمام سفن العدو التى استمرت فى إطلاق نيرانها.. وصدرت الأوامر لقائد المدمرة إبراهيم بنسف كل وثائقها وأجهزتها .. لتأسرها إسرائيل بعد ذلك قطعة حديد عائمة لا نفع بها...

....

لا نزال فى أحداث اليوم الثالث ٣١ أكتوبر .. فلقد كان يوما حافلا بالنشاط.

فى أبسكوبى - مقر القيادة المشتركة للغزو - انتهى جنرال كيتلى ومساعدوه من إعداد الخطة الجديدة، ولقد سميت «أومليت» لأن الكلمة معناها «العجة» وكان هدف الخطة جعل بورسعيد مثل «قرص العجة» بقصفها بعنف من مدفعية الأسطول والطيران لتدمير مبانيها وهدمها تماماً.

ولتحقيق ذلك نصت الخطة على تشديد الهجوم الجوى، وإنزال المظليين الإنجليز غربى بورسعيد فى «الجميل» .. والفرنسيين جنوبها عند منطقة الرسوة .. ثم تسقط المدينة.

وجرى بعد ذلك تعديل بسيط فسميت الخطة «أومليت - ٢» أو «ساملكس».

وكان هدف التعديل هو إنزال الفرنسيين أيضًا فى بور فؤاد لاحتلالها. وبها أصبحت «أومليت» خطة تبادلية مع «موسكتير المعدلة» أى تنفذ مبكراً فى ٣ أو ٤ نوفمبر بينما موسكتير تنفذ فى ٧ أو ٨ نوفمبر ولذلك اعتمدت «أوميليت» أساساً على المظليين.

● **الساعة الحاسمة:**

فى نفس اليوم.. وفى القاهرة حدث شيء مهم وجوهرى تسبب فى تغيير مجرى القتال كله.

كانت الساعة الرابعة بعد ظهر ذلك اليوم: ساعة حاسمة فى تاريخ الحرب .. إذ علمت القاهرة أن إسرائيل لا يمكن أ ن تجازف وحدها بالحرب وإنما ستدخل بريطانيا وفرنسا ودلائل ذلك الأسطول البحرى فى البحر الأبيض المتوسط الذى قيل إنه للمناورات لكن المؤشرات وأوضاع القطع البحرية تقول عكس ذلك وتنبئ عن نية الأسطول فى غزو مصر .. كذلك وصلت معلومات أن قوات بريطانية تضم لواء فدائيين بحريين وآلاي سيارات مدرعة .. وصلت من مالطة إلى قبرص - وقد جاءت هذه المعلومات من ضباط اتصال مصريين كانوا فى قبرص إذ كانت هناك صلات تربط القاهرة بحركة تحرير الجزيرة.

وهنا صدر القرار التالى:

توقف جميع الأعمال التعرضية والتحركات للأمام فى سيناء .. تتخذ الإجراءات لسحب الاحتياطى الاستراتيجى من سيناء إلى غرب قناة السويس.

يتحرك الاحتياطى المدرع للقيادة الشرقية من منطقة الحمة إلى منطقة الجفجافة توطئة لسحبه غرب القناة.

تستعد القوات الأخرى بسيناء للانتقال غرب القناة بمجرد صدور أوامر وأعمال إعادة التجميع.

تخطر القيادة المشتركة لايقاف العمليات التعرضية من جبهتى سوريا والأردن ضد إسرائيل مع الاستعداد للعمل طبقاً لتطور الموقف.

* * *

وفى الساعة السابعة مساء بدأت قنابل الطائرات الكانبرا البريطانية تنهال على مصر وزال كل شك فى حقيقة:

١- ينقل المجهود الرئيسى للقوات المسلحة المصرية إلى غرب قناة السويس للتمسك بالمنطقة: بور سعيد - السويس - القاهرة - بحيث يتم ذلك قبل أول يوم ٢ نوفمبر.

٢- تخلى القوات المسلحة المصرية من سيناء إخلاء كاملا غرب القناة وتتخذ الإجراءات اللازمة لسحب القوات المسلحة فى قطاع غزة ورفح والعريش وشرم الشيخ وقوات الاحتياطى المدرع والاحتياطى المشاة للقيادة الشرقية.

٣- تنتقل رئاسة الفرقة الرابعة المدرعة والمجموعة الثانية المدرعة إلى غرب القناة وتعمل كاحتياطى استراتيجى هناك.

٤- تقتصر أعمال الدفاع الجوى على أعمال المدفعية المضادة للطائرات والدفاع الجوى السلبى.

٥- تنقل الطائرات إلى المطارات الجنوبية توطئة لإقلاعها إلى قواعد صديقة خارج الجمهورية.

٦- تقتصر أعمال القوات البحرية على تنظيم الدفاع عن الساحل والقيام بالدوريات والاستطلاع البحرى فى المياه الإقليمية.

٧- تنظم قوى النضال الشعبى الموضوعة تحت قيادة الجبهات والمناطق العسكرية، تنسق أعمالها مع عمليات القوات المسلحة وتركز الجهود المشتركة للدفاع عن المدن والقرى لآخر طلقة ولآخر رجل.

فى خلال هذا الوقت، وكما قلنا بدأت فى الساعة السابعة مساء.. الطائرات الانجلو فرنسية تقوم بغاراتها على مصر .. وهنا اطمأن بن جوريون وواصل القتال كما يلى:

- مجموعة اللواء ٧ المدرع تهجم على مؤخرة دفاعات أبى عجيلة.

- مجموعة ٧٧ عمليات تهاجم دفاعات رفح.

- اللواء ٢٠٢ مظلات يستمر فى محاولة اقتحام ممر متلا بمساندة اللواء ٣٧ المدرع ومجموعة اللواء ٩ مشاة.

....

فى ذلك اليوم أيضًا سجلت وثائق الأمم المتحدة الاستقالة التاريخية لسكرتيرها العام - الراحل - داج همرشولد الذى كتب فيها:

«لقد ضاعت هباءً كل الجهود الضخمة التى بذلناها فى أوائل العام الحالى للوصول إلى اتفاق بوقف إطلاق النار بين مصر وإسرائيل، كما ضاعت الجهود التى بذلت للوصول إلى إقرار المبادئ الستة للمفاوضات بين مصر وبريطانيا وفرنسا لتسوية مسألة قناة السويس، وذلك نتيجة للإنذار البريطانى الفرنسى الغاشم الذى وجه فى الليلة الماضية إلى مصر.

من أجل ذلك أطلب إلى مجلس الأمن أن يعفينى من منصبى».

داج همرشولد

السكرتير العام للأمم المتحدة

٣١ أكتوبر سنة ١٩٥٦

غير أن القائد الخالد جمال عبد الناصر أرسل إلى همرشولد يناشده البقاء فى منصبه، وبالفعل بقى همرشولد لتقتله القوى الاستعمارية بعد ذلك بسنوات فى الكونغو الإفريقى خلال ثورته بزعامة «باتريس لومومبا» الذى قتل هو أيضاً واعتبر شهيد القارة السمراء..

وننتقل إلى يوم جديد..

اليوم الرابع أول نوفمبر:

• معارك البحرية فى مذكرات حية

مع البداية المبكرة لهذا اليوم وفى الدقيقة الخامسة والعشرين بعد منتصف الليل وقعت أمام رأس غارب البحر الأحمر معركة بحرية غير متكافئة بالمرة.

كانت المدمرة دمياط قد أبحرت من السويس متجهة إلى شرم الشيخ لإمداد السفينة الحربية «رشيد» بما تحتاجه من مؤن ومهمات، لكن عندما وصلت إلى رأس غارب اعترضها الطراد البريطانى «نيوفوندلاند» والمدمرتان «ديانا» و«جازيل» ورغم عدم تكافؤ القوتين لم يفكر قائد دمياط أو بحارته فى الاستسلام بل ظلوا يقاتلون حتى غرقت بهم المدمرة فى المياه.

- كان تسليح دمياط: مدفعًا واحداً عيار ٤ بوصة، مدفعين بوفر ٤٠مم مزدوج، مدفعين بوفر ٢٠ مم مفرد، وكانت حمولتهما ١٦٦٠ طنا.

- وكان تسليح نيوفوندلاند: ٩ مدافع عيار ٦ بوصة، ٨ مدافع عيار ٤

بوصة، ١٢ مدفعًا عيار ٢٠ مم، ٦ أنابيب طوربيد عيار ٢٦ بوصة، وحمولتها ٨٨٠٠ طن.

- وتسليح ديانا: ٦ مدافع ٤,٥ بوصة، ٦ مدافع ٤٠مم، ١٠ أنابيب طوربيد ٢١ بوصة، وحمولتها ٢٦١٠ أطنان.

- وتسليح «جازيل» مثل «ديانا».

هكذا كانت بداية اليوم الرابع فى قتال السويس، ذلك اليوم الذى تغير فيه شكل مسرح العمليات فى سيناء واتخذت فيه ترتيبات كثيرة لتنفيذ قرار الارتداد إلى غرب القناة..

وصباح ذلك اليوم استولت السلطات الفرنسية على سفينتين تجاريتين حبشيتين كانتا فى ميناء مصوع بالصومال وهما «إيبيتا» و«كاترينا جاردى» وقد تم شحنهما بالمعدات الحربية والمؤن وركب فيهما ٧٢ بحاراً فرنسياً تجارياً واتجهتا إلى شرم الشيخ لمساعدة وإمداد اللواء ٩ مشاة الإسرائيلى الذى كان عليه أن يتجه إلى المنطقة.

وفى الساعة السابعة و١٥ دقيقة فى ذات اليوم هاجمت الطائرات الفرنسية من طراز كورسير وأفنوا المدمرة ناصر والفرقاطة طارق أمام ميناء الإسكندرية.. وكانت الوحدتان منشغلتين فى السيطرة وتنظيم عملية اقتراب السفن الأمريكية لترحيل رعايا الولايات المتحدة من مصر! وقد نشبت معركة جوية بحرية استمرت حتى العاشرة و٢٢ دقيقة دون أن تنجح الطائرات فى إحداث إصابات مؤثرة.

كذلك قامت الطائرات البريطانية والفرنسية بمهاجمة الطائرات المصرية فى مطارات إنشاص وبلبيس والدخيلة وغرب القاهرة وذلك بواقع ثلاث طلعات لكل طائرة كل منها ٦٥ دقيقة.

الموقع الصامد:

وفى شرم الشيخ وقعت أحداث مهمة، وفيما يتعلق بأحداث اليوم الرابع (أول نوفمبر) فإننا ننقلها من مذكرات الفريق رؤوف محفوظ (وكان وقتها عقيداً وقائداً لقوات شرم الشيخ)

يقول القائد:

«الخميس أول نوفمبر.. أبلغونى ساعة الفجر أن طرداً وبارجة لم نتبين جنسيتهما قد ظهرا أمام ميناء شرم الشيخ على بعد..

خرجت إلى الساحل..

ولم أستطع بسبب شحوب ضوء الفجر أن أعرف جنسيتهما.. بعثت بمن يرسل إلى القيادة العامة بإشارة لاسلكية أقول فيها:

«بارجة وطراد مجهولا الجنسية أمام مدخل الخليج، افتح المواصلات معنا باستمرار».

ولكن لم تكد تمضى دقائق حتى ايقنت أنها لابد أن تكون سفناً معادية.

إذ أننى لمحت المركب الشراعية التى كانت قد انتهت من تحميل قوتى صنافير وتيران تأخذ طريقها فى اتجاهنا، ولكنها ما كادت تقترب من السفن الواقفة حتى استدارت بسرعة ومضت فى طريق يدور حولها ثم اتجهت رأساً إلى خليج السويس إلى حيث الموانئ الجنوبية المصرية على الخليج.

عدت إلى قيادتى لأجد فى انتظارى مفاجأة كبرى..

القيادة العامة تبعث لى بإشارة لاسلكية تقول:

«جهز نفسك للانسحاب ستصلك الأوامر تفصيلا..».

والحق.. إنى جلست بعدها دقائق طويلة لا أستطيع فيها أن أتصرف أو حتى أفكر..

كل ما كان يدور فى رأسى خلالها مجرد أسئلة بلا أجوبة لماذا أنسحب؟ وكيف أنسحب وماذا حدث؟

كان هذا الأمر أكبر مفاجأة لى فى حياتى العسكرية.....

لم يكن يدور بخلدى أى تفكير فى مثل هذا الأمر..

بل لم أكن حتى مهيئاً لتسلمه..

ثم انتبهت.. وأفقت على ضابط يقدم لى إشارة لاسلكية. كانت تفصيل أمر الانسحاب:

«انسحاب كامل نحو مدينة الطور مع نسف وتدمير الأسلحة والمعدات الثقيلة».

الآن وضح لى غموض الأمر الأول الإنذارى بالانسحاب.. ولكن.. وماذا حدث؟

وعلمت أن الإنذار الأنجلو- فرنسى قد بدأ ينفذ منذ الساعة السابعة من مساء الأمس بضرب المطارات المصرية العربية والمنشآت العسكرية.

وقل لنفسى: إذن لابد أن هناك خطة وراء أمر الانسحاب.

وما كادت كلمة الانسحاب تقفز إلى خاطرى.. حتى اتجه تفكيرى كله إلى أن معنى الانسحاب الكامل هو أن أنسف وأدمر جميع الأسلحة الثقيلة والمعدات والمنشآت.

لكن سيارات نقل الجنود التى عندى ليست مهيأة لهذه العملية.. فقد كانت معدة فقط للنقل الداخلى فى المنطقة والمفروض أننا سننسحب إلى أقرب منطقة عسكرية وهى نقطة الشط (السويس) التى تبعد عنا حوالى ٤٠٠ كيلو متر..

وماذا لو قمنا بمعركة دفاعية خالدة؟

ماذا لو جعلنا من شرم الشيخ طبرق ثانية؟

انه إذا لم نجحت المعركة لأصبحت شرم الشيخ معركة خالدة فى تاريخ المعارك؟

لو نجحت لاكتسبت شرم الشيخ شهرة عالمية واكتسبت القوات المسلحة فخراً وأضافت إلى أمجاد شعبها مجدا على مر العصور.

لو نجحت لاكتسبت أنا أيضا مجداً عسكرياً.. وهذا عامل بشرى لا يمكن تجاهله أو إخفاؤه إذ أن فرصة القائد لا تسنح إلا مرة واحدة فى الحياة.

ثم ماذا سيحدث لقواتى اثناء الانسحاب؟

لسوف نسير فى خط انسحاب طويل.. جداً.. أطول من ٣٠٠ كيلو متر.

ولسوف يكون تدخل الطيران فى عملية الانسحاب شديداً، طيران إسرائيل.. وطيران فرنسا.. وإنجلترا أيضاً!

إذن.. فإن الطابور المنسحب سوف يتعرض إلى أعنف الغارات الجوية.. وستكون مذبحة يتحدث عنها التاريخ العسكرى.. وقد تكتب لى النجاة والعودة فأجد من أبناء الجنود وأسرهم من يصرخ فى وجهى:

ـ أيها القائد.. أين جنودك؟

وعند هذا الحد استقر تفكيرى على قرار بعثته إلى القيادة بإشارة:

«أرى أنه من الأفضل أن أقاتل فى مواقعى حيث إن الانسحاب إلى الطور باهظ التكاليف.. أفد»

«وجلست أنتظر ساعة.. وساعتين.. وثلاث ساعات..

وفى الثانية بعد الظهر جاء فى الرد:

«نوافق على طلبكم. تلغى تعليمات الانسحاب. استمر فى الدفاع، وفقك الله». أفد».

وفى لحظة كنت أبعث إلى القيادة:

«نحن فى مواقعنا لآخر طلقة وآخر رجل».

ثم..

ناديت قائد السفينة الحربية رشيد وقلت له:

ـ اخرج أنت إلى أى ميناء سعودى أو مصرى قريب.

ولاحظت أن أمرى كان قاسياً عليه. فإن ضباط رشيد كانوا قد علموا بما حدث للمدمرة إبراهيم والتقطوا بأنفسهم إشارة استغاثة من المدمرة «دمياط» وكانوا يريدون الاشتراك فى أية معركة.

وقلت له: إن بقاءك فى شرم الشيخ ضرب من الانتحار، إن الغارات المقبلة سوف تتركز عليك، وقطعاً ستموت الباخرة موتاً محققاً.

وقلت: ومن قال لك سلم للإنجليز: اخرج بعد الغروب، واتخذ لنفسك أى طريق ترسمه. والجأ إلى أقرب ميناء مصرى أو أى ميناء سعودى.. وإذا التقيت بأسطول الأعداء عليك أن تقاتل.. ولو حدث وغرقت السفينة وكان أعداؤك شرفاء فسوف يلتقطونك.

ثم قمت أصافحه وأتمنى له حظاً سعيداً.

تحركت رشيد فى السابعة والنصف مساء ومضت وهى تطفئ أنوارها تماماً حتى غابت عن أنظارنا..

وكان الأسطول الذى يحاصرنا قد اتجه نحو الغرب.. فقد كانت مهمته أن يحاصر مدخل خليجنا ـ أى العقبة ـ ومدخل خليج السويس..

وفى هذه اللحظات كانت تمر قافلة بترول.. ولاحظت أن «رشيد» قد أضاءت أنوارها فجأة ودخلت وسط قافلة البترول ثم نفذت منها وبدأت تجنح نحو الساحل السعودى..

كان واضحاً أن قائد رشيد قد استطاع بهذه الخدعة أن يتفادى أى خطر يقابله.. وكان واضحاً أن بجنوحه نحو الساحل السعودى يريد أن يستعين بالجبال التى على الساحل لكى تبطل مفعول رادار أسطول العدو فلا يكتشفه.

ودخلت رشيد ميناء «شرم الوجه».

....

وأسدل الليل ستائره.

اليوم الخامس ٢ نوفمبر:

• عبدالناصر فى الأزهر: سنبنى تاريخاً ومستقبلاً

فى هذا اليوم بدأ الهجوم على شرم الشيخ جواً بقصفات عنيفة تقوم بها ١٢ طائرة فرنسية وإسرائيلية دفعة واحدة ثم تذهب لتجىء مجموعة مماثلة وهكذا.. ورغم أن الهجمات ضارية فقد تم إسقاط خمس طائرات للعدو.

الأولى: كان يقودها قائد السرب المهاجم برتبة صاغ وقد هبط بمظلته وخرجت سيارة مدرعة مصرية للقبض عليه، لكن الطائرات انقضت عليها وأوقفتها حتى استطاع الطيار الهرب بين الصخور وجاءت هليكوبتر لتلتقطه.

والثانية: سقطت أمام «نبق» وقد تم أسر طيارها الذى كان مصاباً فى فخذه.

أما الأخريات فقد ابتلعها البحر هى وطياريها.

ثم حط الليل رحاله على شرم الشيخ.. وسكت الرصاص. وفى الحادية عشرة مساء حلقت على المنطقة طائرة بطيئةالسرعة ومن خلال مكبرات الصوت تكلم من فيها:

«ياقائد شرم الشيخ.. ياقوات شرم الشيخ.. لقد استولينا على الطور وسنقضى عليكم قضاء مبرما.. سنفنيكم.. سندمركم.. سلموا فوراً».

ثم ألقت الطائرة منشورات بذات الكلمات.. ومضت!

وبعث قائد شرم الشيخ إلى القيادة يقول:

«حلقت طائرة للعدو وبها ميكروفونات تنادى القوات بالتسليم، لم يكن لها أثر على الروح المعنوية. مستمرون فى دفاعنا».

* * *

استمرت قوات شرم الشيخ تؤدى واجبها.. وقبل أن يغرب قرص الشمس بساعة واحدة ظهرت ٩ طائرات نفاثة قادمة من اتجاه الطور إلى الشرم ثم دارت حول «رأس نصرانى» و«شرم الشيخ» لكنها لم تلق قنبلة واحدة.. ولمح القائد المصرى على أجنحتها العلامات الإسرائيلية ودهش: لماذا لم تضرب؟

فجأة انقضت هذه الطائرات على المدمرة الإنجليزية «كرين» التى كانت واقفة عند مدخل خليج العقبة.. وراحت الطائرات واحدة بعد أخرى تهاجم المدمرة البريطانية بعنف لمدة ١٥ دقيقة أصيبت بعدها المدمرة بإصابات أحدثت فيها حريقاً.. لماذا حدث ذلك؟

لقد ظنت الطائرات الإسرائيلية أن هذه المدمرة البريطانية هى السفينة المصرية «رشيد» التى عرفناه من أحداث اليوم السابق أنها قد خدعت العدو واتجهت إلى الميناء السعودى!

ملحوظة: اعترف موشيه ديان بهذا الخطأ من جانب طائراته وقال «إنها ضربت المدمرة الإنجليزية كرين» التى سبق أن اشتركت فى مهاجمة المدمرة المصرية (دمياط).

إن هذه الحادثة تدلنا على سوء تدريب الإسرائيليين إذ ضربوا هدفاً دون أن يتبينوا حقيقته.. كما تثير هذه الحادثة من جديد: سوء تنظيم التعاون بين القوات المشتركة فى الغزو.. الإنجليزية والفرنسية وبين القوات الإسرائيلية.

وفى اليوم نفسه ٢ نوفمبر وفى سيناء استطاعت القوات المصرية أن تتخلص من عمليات القتال لترتد غرب القناة طبقًا للأوامر، وهنا فقط انسحبت قوة أبى عجيلة البطلة بعد أن صمدت أمام هجمات العدو وكبدته خسائر.. فكان أن غير قيادته.

* * *

وبوصول القوات إلى غرب القناة، بدأت أوضاع جديدة للتعامل مع الغزو الجوى، كما بدأ تنظيم القطاعات الداخلية للنضال الشعبى.

وقد أغلقت قناة السويس، ذلك اليوم، واستمر الهجوم الجوى المعادى الأنجلو فرنسى وضرب ألماظة ومستودعات الجيش بالقاعدة الرئيسية فى القاهرة ومخازن عربات هايكستب، كما هاجم القاعدة البحرية فى الإسكندرية.

* * *

لقد كان اليوم.. يوم جمعة.. وفى منتصف نهاره يؤدى المسلمون صلاة الجمعة.. ولقد ذهب **جمال عبدالناصر**- وسط كل ما يجرى - ورغم الغارات الجوية - فى حماية الله.. وفى حماية شعبه، إلى جامع الأزهرالشريف مخترقا شوارع القاهرة بسيارة مكشوفة يحيى الجماهير

المناضلة المصطفة على الجانبين بغير خوف.. ومن فوق المنبر الشريف قال عبدالناصر:

«سأقاتل معكم ضد أى غزو.. سنقاتل لآخر نقطة دم ولن نسلم أبداً.. وسنبنى بلدا وتاريخًا ومستقبلاً.. سنجاهد ونقاتل وننتصر بإذن الله.

اليوم السادس ٣ نوفمبر:

• خلافات الشركاء واستقالة ناتنج

فى هذا اليوم فقط وبعد ٥ أيام من القتال، وبعد انسحاب القوات المصرية دخل اللواء ٢٠٢ مظلات الإسرائيلى إلى ممر متلا.. كما دخل اللواء المدرع موقع أبى عجيلة.. كما دخلت قوات أخرى خان يونس بعد معركة عنيفة وبعد أن استطاعت القوة المصرية أن تعبر إسرائيل إلى الأردن.. أيضًا تم الاستيلاء على رأس سدر على خليج السويس.

أما قوات شرم الشيخ فلا تزال مستمرة فى القتال. فقد تقدمت تجاهها القوات الإسرائيلية برئاسة الجنرال إبراهام يوف قائد اللواء التاسع.. من كل جهة، لذلك قرر القائد المصرى أن يجمع قواته المبعثرة فى رأس نصرانى للتماسك مع القوة الرئيسية وأدخل جميع المدنيين والمرضى فى مركب شراعى ليبحر بهم إلى أى ميناء مصرى أو سعودى.. ثم أرسل إلى القيادة ليقول إن قواته محاصرة براً وبحرًا وجواً..

فى هذا اليوم - ٣ نوفمبر - فكر الفرنسيون أن يعملوا من خلف ظهر البريطانيين، بالتواطؤ فقط مع إسرائيل وعلى هذا

الأساس قام القادة الفرنسيون بإعداد خطة جديدة كان هدفها أن تحتل إسرائيل القنطرة شرق يوم ٤ نوفمبر ويستولى الفرنسيون على بور فؤاد بعد ضربها بالطيران، ولتنفيذ ذلك أرسل الأدميرال ديسكادر بارجو نائب قائد قوات الغزو البحرى المشتركة فى الساعة الخامسة والنصف بعد الظهر رسالة إلى حكومته فى باريس يطلب سحب وحدات المظلات الفرنسية من قبرص أى سحبها عن قيادة جنرال كيتلى، وإرسالها إليه مع الاتصال بالحكومة الإسرائيلية لتنسيق عدوان ثنائى بدون إنجلترا، وذلك لما يبدو من ترددها.

كما أرسل بارجو: رئيس أركان حربه جازان إلى معسكر ميشيل لوجران فى قبرص ليعبئ كتيبتى مظلات فرنسية تتأهب للنزول فوق القنطرة شرق وبور فؤاد صباح اليوم التالى ٤/ ١١.

* * *

وفى مساء ذات النهار ٣/ ١١ وبناء على تعليمات حكومته ذهب الملحق العسكرى الفرنسى فى تل أبيب إلى وزارة الدفاع وقيادة الأركان حيث التقى مع الجنرال ديان.

قال الملحق الفرنسى، إن حكومتى تشعر بخيبة أمل من عناد البريطانيين الذين يرفضون تقديم موعد نزولهم فى منطقة القناة المحدد له يوم ٦ نوفمبر.. لكن يوم ٥ نوفمبر ستنعقد الجمعية العامة للأمم المتحدة وتريد حكومتى أن تكون قواتنا فى هذا اليوم موجودة فعلا فى السويس، ولذلك تريد قيادتها العسكرية تقديم موعد الغزو ليكون ميعاده صباح الغد.

ورد ديان: إننى يجب أن أعرض هذا الموضوع بالطبع على وزير الدفاع «بن جوريون» ولكننى أستطيع من الناحية العسكرية أن أعطيك

موافقتى فوراً.. إن قوات الغزو البحرى الفرنسى يجب أن تنزل على ساحل العريش لتستقبلها القوات الإسرائيلية وتفتحح أمامها محاور سيناء الثلاثة لتصل إلى قناة السويس عن طريق القنطرة والإسماعيلية والسويس فى وقت واحد وبدون التعرض لمقاومة شديدة فى بورسعيد (كخطة الإنجليز) أو أن يعرقلها قائد بريطانى متخاذل!!

وبعد حوار سريع ومهم بين الاثنين ذهب ديان إلى بن جوريون الذى «وافق على الفور وبكل ود».

الاجتماع المريب:

لكن الجنرال كيتلى قائد عام قوات الغزو علم بالأمر فعقد فى الحادية عشرة مساء مجلس حرب ضم إليه الأدميرال الفرنسى بارجو والجنرال «بوفر» - المؤرخ العسكرى وأستاذ الاستراتيجية فى فرنسا فيما بعد - وجنرال جيل مدير الإدارة التكتيكية للقوات الفرنسية المنقولة جواً وجنرال ماسو قائد الفرقة ١٠ مظلات فرنسية وبيجادير بتلر قائد مجموعة اللواء ١٦ مظلات، ولم يحضر جازان.

وفى هذا الاجتماع طالب بارجو، بتنفيذ خطة سريعة فاتفق الطرفان **على عقد زواج بين خطة «ساملكس» أو «أومليت» وبين خطة موسكتير المعدلة وتأخذ الخطة الجديدة اسم «تليسكوب»** رمزاً إلى أن التليسكوب له عدستان وكل عدسة ترمز إلى إحدى الخطتين.

وكانت «تليسكوب» بذلك عملا ديناميكيًا جرى إعداده أثناء المعركة واحتضنته الظروف.. وتنفذ كما يلى:

- فى صباح يوم ٤ نوفمبر (أى اليوم التالى) تقوم الطائرات الجوية

البريطانية والفرنسية بتدمير المدفعية الساحلية المصرية ومحطات الرادار والمدفعية المضادة للطائرات ومراكز المقاومة فى رأس الشاطئ ببور سعيد.

- فى صباح يوم ٥ نوفمبر تنفذ ساملكس بهبوط المظليين البريطانيين فى الجميل غرب بورسعيد والفرنسيين جنوبها أى فى منطقة الرسوة وأيضاً فى بورفؤاد لتأمين المحيط الخارجى لرأس الشاطئ.

- فى صباح يوم ٦ نوفمبر: يتم الإنزال البحرى وفق خطة موسكتير المعدلة.

وانتهى الاجتماع فى الثانية عشرة والنصف مساء، ونهض المجتمعون لإعداد عمليات التنفيذ، لكن بعد ثلاث ساعات ونصف ساعة وصل أنتونى هيد وزير الدفاع البريطانى ومعه جنرال «جيرالد تمبلر» رئيس هيئة أركان حرب الإمبراطورية وعقد اجتماعاً مع نفس القادة كما حضره جنرال جازان، واستغرق المؤتمر ساعتين ونصف ساعة واتفقوا فيه على الخطة كما بحثوا تقرير عمليات الطيران يوم ٣ حيث تم مهاجمة كوبرى الجميل فى بورسعيد ومحطة إرسال الإذاعة فى أبى زعبل، خلال هجمات عنيفة مركزة أصابت بورسعيد ومنشآت مدنية.

وقال هيد فى مؤتمره العسكرى: إنه جاء للإسراع فى العملية التى لابد وأن تتم بنجاح لأن رئيس الوزراء إيدن قد أعلن فى مجلس العموم صباح اليوم (٣/ ١١) أن قوات «محدودة العدد» ستهبط فى بورسعيد لإنهاء القتال بين المصريين والإسرائيليين.!!

* * *

وفى هذا الاجتماع لمجلس العموم، ومع الكذبة التى أطلقها إيدن ظهر نبأ شريف يتمثل فى استقالة أنتونى ناتنج وزير الدولة البريطانى لشئون الشرق الأوسط والأمم المتحدة.

قال ناتنج فى استقالته:

«السير أنتونى إيدن»

لقد أصبح من العسير علىّ أن أستمر فى مؤازرة السياسة التى تنتهجها حكومة جلالة الملكة الآن سواء فى الشرق الأوسط أو فى الأمم المتحدة، وأجدنى مضطرا إلى أن أوضح أسباب استقالتى لكم قبل اجتماع مجلس العموم فى جلسته بعد ظهر السبت ٣ نوفمبر».

أنتونى ناتنج

وزير الدولة

لشئون الشرق الأوسط والأمم المتحدة.

اليوم السابع ٤ نوفمبر:

• الخطة المصرية فى مواجهة الغزو

فى الساعة السادسة من صباح هذا اليوم كانت القوات المصرية التى أعيدت إلى غرب القناة قد تمركزت فى القطاعات الدفاعية التى جرى تقسيمها داخل مثلث الدفاع الحيوى: بورسعيد - السويس - القاهرة.

والتحمت هذه القوات مع قوى النضال الشعبى فى مواجهة الغزو..

وربما لا تدعونا الحاجة هنا إلى سرد تفاصيل القطاعات الدفاعية المصرية.. وإنما يتطلب الأمر أن نتعرض لمنطقة بورسعيد باعتبار أنها هى المنطقة الوحيدة التى تعرضت بشكل مباشر ومؤثر لأعمال العدو.

كانت القوات المصرية الموجودة فى منطقة بورسعيد تضم:

- اللواء ٩٧ اللواء المشاة الاحتياطى الذى تكون من كتيبتى مشاة احتياط.

- الكتيبة الرابعة مشاة من اللواء الثالث المشاة..

- كتيبتين من الحرس الوطنى.

- بطاريتين للمدفعية الساحلية...

- تروب من الآلاى الرابع مدفعية ميدان. أى فى واقع الأمر ٤ مدافع ذاتية الحركة.

- تروب ونصف من المدافع الخفيفة المضادة للطائرات..

أيضًا فإنه من الواجب أن تقول إن الكتيبة الرابعة مشاة كانت قد دفعت إلى سيناء ثم عادت تحت هجمات العدو الجوية الأمر الذى أحدث بها خسائر وبالمثل تعرض اللواء ٩٧ المشاة الاحتياطى أثناء قدومه إلى بورسعيد لغارات جوية عنيفة من طائرات العدو وأحدثت به أيضًا خسائر كبيرة..

هكذا كان الموقف العسكرى المصرى فى بورسعيد..

وعند فجر هذا اليوم - ٤ نوفمبر - كانت مجموعة بحرية تضم ثلاثة لنشات طوربيد فى مرور وسط مياه البحر المتوسط أمام شمال فنار البرلس.. وفى هذه الأثناء شاهدت مجموعة من الأسطول البحرى البريطانى.. وقرر أفراد اللنشات المصرية - وهنا تبرز قيمة الإنسان المصرى - القيام بمهمات انتحارية هى مهاجمة أسطول العدو رغم تفوقه الكامل.. وبالفعل اندفع اللنش القائد يطلق طوربيدات على القطع البحرية الإنجليزية وتبعه اللنشان الآخران فى محاولة لصيد فريسة دسمة. وبعد معركة انتحارية فلح المصريون فى اصطياد الفريسة إذ تمكنوا من إغراق مدمرة بريطانية.

فى نفس هذا الواقت، ومع الخيوط الأولى لأضواء نهار ٤ نوفمبر مرقت فى الفضاء أسراب من الطائرات البريطانية والفرنسية لتنفيذ خطة «تليسكوب» بقرب مدينة بورسعيد وتدمير دفاعاتها. وكان الضرب وحشياً لم يفرق بين هدف عسكرى أو مدنى!

....

وفى ذات الوقت أيضًا كان **موشيه ديان** يعقد اجتماعًا لهيئة أركان القوات الإسرائيلية ليبحث تطورات الموقف العسكرى على مسرح العمليات وكان من بين ما أثير:

١ - انسحاب الجيش المصرى من سيناء: قال ديان - نقلا عن كتابه - «.. ولم يستطع أى منا بالطبع أن يعرف متى تم الانسحاب بالضبط، وليس هناك شك فى أن الوحدات المصرية لم تضيع دقيقة واحدة زائدة ولم تبطئ الأمر أو بأكثر دقة المهلة التى أعطيت لها للانسحاب».

٢ - ... وكما يقول ديان «السلب والسرقة اللذان كان يقوم بهما الإسرائيليون بملابس عسكرية وبدونها، بعد أن دخلوا سيناء، ففى البداية اقتحم جنودنا المحلات بحجة رؤية ما إذا كانوا لا يخفون فيها جنوداً مصريين مسلحين.. ولكن بعد ذلك بدأ جنودنا فى وضع أيديهم على الممتلكات التى تركت بدون إشراف أصحابها بسبب حظر التجول».

٣ - الموقف فى شرم الشيخ. يقول ديان: «كانت هناك قيمة خاصة من الناحية السياسية للسيطرة على مضايق إيلات، وكان هو الهدف الرئيسى للمعركة، ولو توقفت المعارك وفى أيدينا كل شبه جزيرة سيناء دون شرم الشيخ - لكان الحصار قائمًا على الملاحة إلى إسرائيل ويكون

معنى الأمر أننا خسرنا المعركة.. ويضيف ديان: إن هدفنا هو السيطرة على مضايق إيلات وليس النزال فى معركة مع الجيش المصرى هناك».

٤ - **تدعيم القوات الإسرئيلية** لتوجيه ضربتين متتاليتين ضد الدفاعات المصرية فى شرم الشيخ: الضربة الأولى اليوم (١٤/ ١١) من الشمال لمفاجأة القوات المصرية.

وانتهى الاجتماع وبدأ ديان يتتبع ما يجرى فى شرم الشيخ.. ولقد كان ما جرى ضد توقعاته فهو يقول عن الضربة الأولى.. **«ولكن هذه المفاجأة لم تأت بأية ميزة تكتيكية للواء الإسرائيلى»**.

كيف؟

نعود إلى يوميات القوات المصرية الصامدة.....

الإنسان يهزم الجحيم:

جاء فجر يوم ٤ نوفمبر..

وبدأت الغارات مع أول ضوء.. وكانت فى هذه المرة غارات لم تشهدها شرم الشيخ فى اليومين السابقين..

العدو يستخدم جميع أنواع طائراته ويضرب بجميع أشكال قنابله..

نجحت الطائرات فى إسكات المدافع المضادة للطائرات..

أصبحت لها السيطرة الكاملة..

أصبحت تضرب من ارتفاع لا يزيد عن ٥٠٠ قدم. تحولت لتضرب أفراد المشاة فى خنادقهم.. ركزت على أطقم مدافع الماكينة المتوسطة والمضادة للدبابات.

ضربت الطائرات أفراد المشاة بالمدافع الأتوماتيكية.. وبالصواريخ وقنابل النابالم الحارقة.. المحرمة دوليا!

جاءت الساعة العاشرة صباحًا.. الغارات الجوية لا تزال مستمرة.. اللواء التاسع الإسرائيلي - صاحب المفاجأة - وصل إلى رأس نصراني.. وبدأت تحضيراته للمعركة الأرضية بضرب المواقع المصرية بمدفعية الميدان ٢٥ رطلا والهاون ١٢٠ مم. وبعد تمهيد طويل من المدفعية والطيران هاجمت القوات الإسرائيلية لتجد أن القوات المصرية كانت قد أخلت موقع «رأس نصراني» وانسحبت إلى شرم الشيخ... **ولقد كانت هذه المفاجأة شديدة لقائد العدو الذى أضاع وقتا طويلا وذخيرة كثيرة لاقتحام موقع خال..**

وتقدمت قوات العدو حيث توقفت أمام نقطة الارتفاع رقم ١٠٥ التى تتحكم فى الطريق الموصل من رأس نصراني إلى شرم الشيخ.. إنها هضبة مرتفعة تقع أمام الموقع الدفاعي الرئيسي فى الشرم وتبعد عنه بخمسة كيلومترات وكان فيها جماعة مشاة مدعمة بالرشاشات المتوسطية، وقد فتحت الجماعة المصرية نيراناً كثيفة ومؤثرة أحدثت خسائر كبيرة فى العناصر المتقدمة للعدو الذى توقف تقدمه تماماً وطلب قائده مساعدة الطيران الذى جاء يصب حممه على الموقع المصرى الباسل.. وحاول قائد الكتيبة المصرى - الذى تتبعه الجماعة دفع فصيلة مشاة لتعزيز جماعة نقطة ١٠٥ لكن طائرات العدو حالت دون تحقيق ذلك.. وأخيراً وبعد قتال استغرق أكثر من ساعتين تغلبت الكثرة واستولى الإسرائيليون على النقطة ١٠٥ بعد أن استشهد معظم أفرادها فى بسالة تعبر على الإنسان المصرى المحارب.. لقد استشهد هؤلاء الشجعان بعد أن تمكنوا هم وزملاؤهم من

تعطيل تقدم لواء كامل لمدة ساعتين وبعد أن يئس قائد العدو رغم تفوقه فأوقف تقدمه، كما ترك الطيران والمدفعية للتعامل مع الدفاعات المصرية الرئيسية فى شرم الشيخ.

هكذا توالى الجحيم على شرم الشيخ...

وأصبح اللون الأحمر يصبغ النهار...

وبلغ الموقف ذروة الخطر..

هنا بعث قائد شرم الشيخ بإشارة إلى القيادة العامة يصف الموقف.

«أشد ما عرفته الإنسانية المتوحشة من غارات محرقة بالنابالم.. ست ساعات حتى الغروب والقوات الإسرائيلية تضرب شرم الشيخ بالطائرات ومدفعية الميدان والهاونات ومدافع الدبابات».

وكلما كان الغروب يقترب كان الضرب يعنف..

وجاء الظلام.

ولكن أضواء الحرائق والانفجارات كانت تحيله إلى نهار.. كان ذلك علامة الهجوم الإسرائيلى الليلى الكبير الذى أعده ديان ومساعدوه ليكون الضربة الأولى الكبيرة - لاختراق مواقع شرم الشيخ.

كانت هذه المواقع تتكون من:

- سرية مشاة فى أقصى اليمين على طريق رأس نصرانى - الشرم.
- سرية مشاة فى اليسار على الطريق القادم إلى شرم الشيخ من الطور..
- سرية مشاة بين السريتين السابقتين تصل فيما بينهما..
- سرية مشاة الخلف للدفاع عن المطار وللمعاونة فى رصد الاختراق إذا حدث..

وكان للسرية اليمنى موقعان: أمامى تحتله نهاراً، وخلفى على مسافة ٥٠٠ ياردة تحتله ليلا.. ولهذا عندما هبط الليل احتلت السرية موقعها الخلفى وبدأت ترقب الهجوم الرئيسى الإسرائيلى الأول: أو: الضربة الأولى:

فى الساعة الثامنة والنصف مساء، كان ميعاد هذه الضربة للموقع.. ولما وجدته خاليًا ظنت أن القوات المدافعة قد تركت مواقعها وانسحبت تماما فاندفعت إلى الأمام وما أن وقعت فى المرمى المؤثر لنيران الأسلحة المصرية.. حتى فتحت القوة المصرية كل نيرانها على القوة المهاجمة..

كانت نيرانًا بشعة..

بالبنادق والرشاشات والهاونات..

وتساقط الجنود الإسرائيليون قتلى فى موجات متتالية كبيرة.. تقول **المجلة العسكرية الأمريكية «أمريكان ميليترى ريفيو»** فى وصفها للجنود الإسرائيليين الذين لم يصابوا «لقد التصقوا بالأرض بينما راحت صرخات المصابين تعلو، والمصريون يزيدون من تركيز نيرانهم».

«خلال المعركة بعث قائد شرم الشيخ إلى القيادة فى القاهرة: «المعركة فى أعنف مراحلها.. وانتظروا النتائج».

كانت النتيجة فاشلة بالنسبة للإسرائيليين.. لذلك ففى الساعة الرابعة و٢٠ دقيقة فجرا ـ كما يقول ديان ـ صدر أمر الانسحاب، وبعث قائد شرم الشيخ إلى القاهرة بالنتائج تفصيلا.. وبعد دقائق جاء رد القيادة:

إلى القائمقام أركان الحرب رؤوف محفوظ:

«أقدر فيك وجنودك البطولة والإقدام.. ستكون مثالا للوطنية والتضحية فى سبيل الواجب، إذا لم يمكنك الاستمرار حتى أول ضوء فإنى آمرك أن

تسلم، تخلص من جميع أنواع الأسلحة حتى البنادق والطبنجات ولو بإلقائها فى البحر.. تدمر جميع المنشآت إذا أمكن. تحياتى».

تسلم القائد المصرى رسالة القيادة ثم وكما يقول فى مذكراته: «قرأت الرسالة أكثر من مرة..

ولقد خامرنى الشك فى أن تكون هذه الرسالة قد أرسلت بفعل تدخل العدو كخدعة يريد بها أن ينهى المعركة بأسهل الطرق..

وسألت ضابط الإشارة: كيف وصلت هذه الرسالة؟

وقال لى إنها وصلت بالشفرة..

ولكن هذا الرد لم يقنعنى.. ثم سرعان ما قفزت الطمأنينة إلى نفسى.. لقد وقع نظرى على أول سطر.. فتأكدت أن العدو لا يمكن أن يعرف اسمى ولا رتبتى بالكامل.

وناديت ضابط الإشارة مرة أخرى.. وأمرته أمراً صريحًا بألا يتسرب مضمون هذه الإشارة إلى أى فرد مهما كانت رتبته. فقد كنت ومازلت مؤمنا بأننا سنقاوم هجمات العدو».

ووسط الجو المحفوف بالتوتر والخطر بدأ الطرفان يستعدان للقاء الدموى الثانى..

وعند منتصف الليل.. أو على وجه الدقة بعده مباشرة بدأ الهجوم الثانى الإسرائيلى مستهدفًا هذه المرة سرية المشاة التى فى اليسار وتقدمت مجموعة كتيبة معادية تحت ستر المدفعية والهاونات ولكن فجأة اصطدمت بحقل ألغام لم تكن تدرى بوجوده كما انهالت عليها النيران المصرية بكثافة كبيرة من كل اتجاه.. وقد تكبدت هذه الكتيبة خسائر فادحة إذ قتل قائدها

وعدد كبير من ضباطها واضطر قائد مجموعة اللواء المعادى الإسرائيلى إلى إصدار أوامره بالانسحاب.

ولقد كانت إسرائيل ـ بكل الجهد الذى بذلته ـ حريصة على أن تأخذ شرم الشيخ بأى ثمن خاصة وأن حليفتيها: بريطانيا وفرنسا قد بدأتا صباح اليوم فى تنفيذ خطة ضرب بورسعيد.. كما ان الطائرات الأنجلو فرنسية عادت بعد الظهر لتضرب المدينة وتدمرها..

ولقد دفع هذا الهجوم الجوى إلى أن يصدر قادة القيادة الشرقية المصرية فى الساعة السادسة مساء.. القرار التالى نصه:

ـ تدفع كتيبة مشاة للتمسك بالمضايق جنوب بورسعيد.

ـ يدفع تروب مضاد للطائرات وتروب مدفعية صاروخية إلى مدينة بورسعيد.

ـ تدفع قوة فدائية إلى داخل بورسعيد.

ـ تدعم منطقة السويس بالكتيبة ٢٩٦ مشاة من لواء ٩٩ مشاة احتياط.

وجرى على الفور تنفيذ قرار قائد القيادة الشرقية المصرية.

اليوم الثامن ٥ نوفمبر:

○ انتهت ملحمة شرم الشيخ..
وبورسعيد تناضل

قبيل الفجر فى هذا اليوم كانت قوات شرم الشيخ الصامدة لا تزال وحدها تناضل وسط الجحيم.. وقد أرسلت إليها القيادة العامة تستفسر عن الموقف. فجاءها رد قائد شرم الشيخ:

«أوقفنا هجومهم الليلى.. نتوقع فورًا هجومًا مدعمًا بالدبابات».

أما اللواء التاسع الإسرائيلى المهاجم فلقد انضمت إليه الكتيبة ٨٩٠ مظلات.. أكثر من ذلك ـ رغم التدعيم ـ فقد سبق هجومه: غارات جوية كثيفة..

ومع الفجر ـ كما يقول ديان فى كتابه ـ فى الساعة ٥,٣٠ استؤنف الهجوم، وهذه المرة بمساعدة نيران الهاونات الثقيلة ١٢٠مم وباشتراك طائرات السلاح الجوى..

يقول قائد شرم الشيخ:

امتلأت السماء ـ كما لم أر فى حياتى ـ بأسراب الطائرات الفرنسية والإسرائيلية..

وراحت الطائرات تنقض على الأفراد فى مواقعهم.. فقد كانت جميع الأهداف الحيوية قد دمرت.. ولم يعد باقيًا سوى الأفراد.. البشر.. بأسلحتهم الخفيفة فى أيديهم..

ثلاث ساعات كاملة..

وجنود شرم الشيخ ـ أشجع الجنود فى نظرى ـ تنهال عليهم الطائرات بالعشرات.. وتركز على موقع واحد ليس فيه سوى خمسة أو ستة أفراد.

ثلاث ساعات كاملة..

وماذا تكون هذه الساعات الثلاث بجانب ما تحمله جنود شرم الشيخ؟.

ثم..

وبعد ذلك هجمت القوات البرية.. لم يكن هجوماً بالمعنى المعروف.. لقد قامت الطائرات بالمهمة، إنما كان تطهيراً للمواقع..

* * *

ونجح العدو فى الاستيلاء على الموقع.. لأن جنود وضباط شرم الشيخ ـ رغم أنهم بشر ولكل بشر طاقته ـ تحملوا ما فوق طاقة كل بشر..

غارات وحشية عنيفة.. لا نوم ـ لا راحة ـ لا نظام فى تناول الطعام طوال ٤ أيام مليئة بالضرب والقتال والجحيم.

ومع كل هذا لم تستطع قوات العدو وعلى رأسها قائدها «إبراهام يوف» أن تصل إلى رئاسة شرم الشيخ.. إلا بعد ساعتين من اختراق الموقع.. خلالهما حارب الإنسان المصرى بكل شىء حتى.. بيديه.

هو .. وهـم:

سـقطت شـرم الشـيخ المناضلة وكـان ديان فى الطريق إليـهـا.. ركب طائرة.. ثم ركب سـيـارة على الطريق بين الطور والشـرم.. وفى رحلتـه شاهد عدداً من الجنود المصريين.. ونسمع منه ملاحظاته كما يرويها فى «يوميات معركة سيناء»:

«أمرت المرافقين لى ألا يردوا بالنيران على الطلقات التى تفتح علينا ـ من المصـريين ـ **فأخطر شىء أن نتوقف ونتورط فى قتال مع جنود مصريين**».

«لم يكن هناك ما يمنع أن تحتل جماعة من الجنود مكاناً وراء مجموعة شجيرات أو أى «تبة» فى الأرض تجعلنا كالمنخل من نيران رشاشاتها».

«.. لكن لم يفـتح أحـد النيـران علينا.. ولعلهم لم يدركـوا أننا جنود إسرائيليون.. وإنما مروا بجانبنا وقد جر الجرحى منهم أرجلهم بصعوبة.

وعلى الرغم من ذلك فلم تضعف عندى ولو للحظة واحـدة.. فكرة أنه إذا حدثت لنا «متاعب» **وأمسك بنا المصريون فستكون هذه نهايتنا فإنهم ولو حتى بأصابع أيديهم يستطيعون أن يمزقونا إرباً**».

«وفى النهاية مال الطريق إلى الجبال وتنفسنا الصعداء».

* * *

ثم يقول ديان: لقد احتفلنا بإنهاء اللواء التاسع لمهامه، وعندما عدت إلى تل أبيب «أبلغت بن جوريون أن شرم الشيخ قد احتلت وانتهت المعركة، فقال بتردد «تهكمى» وتردد جدى: «**وأنت.. هل تستطيع أن تتحمل مسئولية أن تقول هذا**؟ ولم أجبه فهو يعرف جيداً أن ما يضايقنى ليس

وقف المعارك وإنما الخوف على مقدرتنا على مواجهة المعركة السياسية التى تبدأ الآن «فى الأمم المتحدة».

سقطت شرم الشيخ:

فى ذات النهار ـ ٥ نوفمبر ـ ومع الفجر جاءت الطائرات الأنجلو فرنسية تهاجم بورسعيد.. ثم أسقطت جنود المظلات وهم ٦٠٠ بريطانى و٤٨٧ فرنسيا فى الجميل والرسوة وبور فؤاد وسط معركة عنيفة مع القوات المصرية وقوى النضال الشعبى.

ولقد كانت قوة الاقتحام الجوى فى ذلك النهار بقيادة البريجادير بتلر وتضم القوات التى ذكرناها فى الفصل السابق ليوميات القتال.

وقد استمر **الإبرار** الجوى فى ذلك النهار، وأرسل بتلر الخبر إلى لندن قائلاً إنه يحاصر مقر القائد العسكرى للمدينة و«قد» يكون مستعداً للمناقشة لكن هذا ليس مؤكداً!!.

ماذا حدث فى لندن؟

يقول أستاذ التاريخ المعاصر بجامعة (ردنج): هيوتوماس فى دراسته عن حرب السويس التى أجراها بتكليف من صحيفة الصنداى تايمز والتى نشرتها سنة ٦٦ كما نشرها «الأهرام»:

«لقد استقبل مجلس العموم النبأ كما لو كان ناصر نفسه قد استسلم فراح المحافظون «كانوا يحكمون» يهتفون ويلوحون فى مشهد غريب.. وبقى «ج.ج» وهو نائب محافظ جالسًا.. فصاح فيه لينوكس بويد يأمره بالوقوف!.

ولكن بورسعيد كانت ـ الكلام لا يزال لأستاذ التاريخ ـ **أبعد ما تكون عن الاستسلام** فقد استثيرت حماستها إلى أبعد مدى ـ وفى المساء

بعث بولجانين بمذكرات شديدة العنف إلى إيدن ومولية وبن جوريون ذكر فيها أن الاتحاد السوفيتى مستعد لسحقهم وذلك باستخدام «كل الوسائل الممكنة من الأسلحة المدمرة».

طوال هذا اليوم.. ركزت القوات الجوية المعادية غاراتها فوق بورسعيد وشنت غارات متتالية كانت نتيجتها الطبيعية تدمير كافة الأسلحة الثقيلة لدى القوات المصرية المدافعة والتى لم يبق لديها منها سوى مدفعين مضادين للدبابات وهاونين فقط.

اليوم التاسع ٦ نوفمبر:

• مصيدة بورسعيد واعترافات بوفر!

فى نحو الساعة الرابعة من فجر هذا اليوم وصل أسطول الغزو الإنجليزى الفرنسى إلى مشارف بورسعيد.. وبعد نحو ساعة فتحت البوارج نيران مدافعها الثقيلة على امتداد الشاطئ المصرى واستمر الأسطول الأنجلو فرنسى يقذف حممه لمدة ٤٥ دقيقة حتى غطت سحب الدخان الكثيفة كل شاطئ ومدينة بورسعيد.. ثم تتابعت موجات من الطائرات المعادية الإنجليزية والفرنسية لتلقى بقنابلها وصواريخها على الشاطئ والمدينة.

وفى الساعة السادسة صباحاً بدأ الاقتحام البحرى.. أى دخول الأسطول إلى ميناء بورسعيد وشواطئها.. وتتابعت موجات الاقتحام حيث وصلت سفينة القيادة «تينى» إلى رصيف ديليسبس تحمل الجنرال هيوستكويل..

وفى هذه الأثناء زاد عنف القتال.. تلاحم الجيش المصرى مع قوى النضال لتنهال النيران من كل اتجاه على قوات العدو التى كانت فى كل مرة تفتح عليها النيران، توقف تقدمها البحرى لتأتى الطائرات المقاتلة المعادية وتقذف بقنابلها وصواريخها مواقع الدفاع المصرية ورجالها.

وقد قامت عناصر انتحارية من القوات الجوية المصرية بغارات خاطفة فوق منطقة رأس الشاطئ التى نزلت إليها قوات الغزو.

وبسبب ضراوة الدفاع المصرى لم تستطع قوات الغزو أن تؤمن منطقة رأس الشاطئ ببورسعيد طوال ذلك اليوم، وتأمين رأس شاطئ هو احتلال مساحة معينة على الشاطئ تمهيداً لوصول باقى القوات الغازية إليه.. وكان هذا الفشل عكس توقعات الغزاة إذ أن الجنرال «بارجو» قال وهو فى الطريق إلى بورسعيد لزميله الجنرال الفرنسى «بوفر»:

«هيا بنا إلى بورسعيد فحالما نصل مدخل قناة السويس سنصبح سادة الموقف».

ذلك أن توقعات «بارجو» و «بوفر» وغيرهما كانت عندما رسموا خطة الاقتحام البحرى».. كما يلى:

- إن منطقة القناة ستسقط بسرعة.

ثم و.. فوراً يثور الشعب المصرى..

وبعد ذلك تسقط القاهرة.. ويسقط عبد الناصر..

وهنا.. على الفور تسقط مصر بين أيديهم..

وبذلك:

- تطلق يد فرنسا حرة فى الشمال الإفريقى العربى عندما تصبح الجزائر وحيدة بغير مساعدة القاهرة..

- يعود النفوذ البريطانى إلى الوطن العربى..

- تعود قناة السويس كما كانت قبل تأميمها..

وبهذا ينهار كل ما هو ثورى على أرض العرب ويتوسع النفوذ البريطانى والفرنسى.. وترتفع أعلام التحالف مع الغرب..

لكن شيئًا من ذلك لم يحدث، وفشلت الخطة التى قال عنها ديان فى كتابه ساخراً: «بعد أن رقدت الدجاجة موسكتير المعدلة النهائية طويلاً فوق البيض خرجت على العالم بكتكوتين هزيلين»..!!

ونذكر هنا حادثة تكلم عنها أستاذ التاريخ «هيوم توماس».. كما تكلم عنها الجنرال «بوفر» فى كتابه عن «حملة السويس سنة ١٩٥٦»، وكان «بوفر» قد شغل منصب مدير معهد الدراسات الاستراتيجية الفرنسى.. و .. جاء إلى القاهرة فى يناير سنة ١٩٧١ بدعوة من «الأهرام»...

تقول الحادثة التى تكلم عنها توماس .. و .. بوفر:

«فى الساعة الحادية عشرة صباحًا وقع حادث غريب، فقد توجه الجنرالات ستوكويل وبوفر والأميرال دير نفورد سلاتر والمارشال الجوى بارنيت فى قارب صغير إلى المبنى التابع لهيئة قناة السويس فى بورسعيد حيث كانوا يعتقدون أن القائد المصرى ينتظرهم هناك للتسليم، وبينما كانوا على وشك النزول فوجئوا بوابل من الرصاص ينهال عليهم وأدرك القادة الأربعة الكبار أنه إذا كان يوجد أحد فى انتظاره فليس فى نيته التسليم على أى حال...(!!).

ويضيف الجنرال «بوفر» فى كتابه معبراً عن مشاعره وقتها: وتأملت بشىء من التفكير أنه لو لم يكن المصريون قد أطلقوا علينا النيران لكان باستطاعتهم أسرنا بمجرد نزولنا إلى الشاطئ.

وأدبر القادة الأربعة هاربين عائدين بينما استمر إطلاق الرصاص...

واستمرت معركة الاقتحام..

وفى آخر النهار لذلك اليوم بدأ طابور مصفح يتقدمه البريجادير بتلر فى الدبابة الأولى، متجهًا جنوباً صوب السويس لكنه هو وطابوره لم يصلا إلا لقرية الكاب على مسافة ٢٥ ميلاً جنوبى بورسعيد إذ صدهم موقع مصرى مقاتل وتعامل معهم بالنيران ..

وعندما غربت شمس ٦ نوفمبر عكف الإنجليز والفرنسيون على إحصاء عدد قتلاهم سواء الذين كانوا فى الأسطول.. أو.. فى عشر طائرات مقاتلة تم إسقاطها...

اليوم العاشر: ٧ نوفمبر

• زوجة إيدن تقول: قناة السويس كانت تجرى فى غرفة نومى!!

فى الساعة الأخيرة من ليلة ٦ نوفمبر بكى سير أنطونى إيدن رئيس وزراء بريطانيا العظمى.. وقال لمساعديه: «إننى أفضل انهيار الإمبراطورية البريطانية دفعة واحدة على أن تعانى من سكرات موت بطىء».

ثم أرسل يوافق على قرار وقف إطلاق النار الذى أصدرته الأمم المتحدة على أن يبدأ من الساعة الثانية صباح يوم ٧ نوفمبر ومن قبل كان قد سبقه فى الموافقة «بن جوريون» أما جى موليه رئيس وزراء فرنسا فقد بقى وحيداً.. حائراً وظن أنه سيحرز تقدمًا.. لكنه فشل. بل إن إيدن أرسل تعليمات إلى قادته فى بورسعيد لمنع الفرنسيين ـ إذا حاولوا ـ من التقدم فى حماقة إلى الجنوب...

ثم اضطر موليه.. ووافق على القرار الذى صدر فى الساعة الثانية من صباح هذا اليوم ٧ نوفمبر سنة ١٩٥٦.

وتحطمت أحلام إيدن وعاد ليلتها مهدوداً إلى منزله. يبكى بين يدى زوجته التى تصغره بثلاثين عامًا، والتى كانت تريده أن يصبح بطلاً مثل خاله سير: ونستون تشرشل. وكانت زوجة إيدن فى يوم ما قبل الحرب قد قالت لصحيفة أمريكية (كتاب خفايا السويس ـ محمد حسنين هيكل):

«إن قناة السويس تجرى الآن فى غرفة نومى...»

ثم أمسكت ليدى إيدن بصحيفة بريطانية نشرت صورة لجمال عبدالناصر وقالت لزائرها:

ـ كيف يستطيع هذا المصرى أن يتحدى أنطونى إيدن.. لقد طلبت رأسه من أنطونى وسوف أحصل عليها!!.

...

كانت ليدى إيدن تسمع نقلاً عن نوادى حزب المحافظين أن الكثيرين يقولون عن زوجها إنه رجل من القش!

وكانت ـ لهذا تقول له:

ـ تصور بعضهم يقول إنه مازال عليك أن تثبت أن لك شارباً حقيقياً...

على أن سير إيدن ـ طبقاً لما جرى ـ لم يستطع إثبات ذلك!!.

العدوان وأهدافه

الحصاد .. والنتائج الحاسمة

بصدور قرار الأمم المتحدة فى الثانية من صباح ٧ نوفمبر سنة ١٩٥٦ انتهت رسمياً حرب السويس «الشهيرة»..

إن هذه الحرب برغم كل ما فيها تعتبر حرباً محلية من سلسلة الحروب العديدة التى تتعرض لها الدول حديثة الاستقلال والتحرر من الدول الاستعمارية التى اضطرت ـ تحت ضغط المقاومة الشعبية ـ أن تجلو عن الدولة وترحل .. ثم عادت تحاول قنصها.

وطبقاً لاستراتيجية الدول الاستعمارية فإن الحرب المحلية هى «الوسيلة المناسبة لتحقيق أهداف محددة، تقوم على صدام مسلح تحدد فيه مسبقاً أهدافه السياسية».

ويجرى تنفيذ هذا الصدام بقوات تستطيع أن تحرز الأهداف بسرعة وحسم لتضع العالم أمام الأمر الواقع ولتمنع تطور الحرب من النطاق المحلى إلى حرب عالمية تشترك فيها دول أخرى.

ولذلك فإن الاختلاف الأساسى بين «الحرب المحلية» و «الحرب الشاملة» ينحصر فى مدى الحرب وأهدافها ونتائجها..

إن الحرب المحلية تتطلب الحذر و... خفة الحركة والمرونة والقدرات القتالية العالية للقوات ولذلك تعتمد على الطائرات والمظليين الفدائيين ومشاة الأسطول.. وهذه هى التى استخدمتها قوى العدوان الثلاثى.

ولقد اشتركت فى العدوان قوات كثيرة العدد هى:

قوات برية حجمها:

٣٨ من ألوية الدول الثلاث و٧٥٠ دبابة و٢٥١٠ مدافع.

قوات بحرية تضم:

بارجة و٧ حاملات طائرات و٨ طرادات و٢٠ مدمرة و٢٠ فرقاطة و٩ غواصات و ٢٢ لنش طوربيد و١٣٤ سفينة أخرى.

قوات جوية قوامها:

٢٨ سرب مقاتلات و٢٥ سرب قاذفة مقاتلة و٢٣ سرب قاذفات و١٩ سرب طائرات نقل جوى و١٠ أسراب طائرات استطلاع وسربان هليكوبتر اقتحام و٥ أسراب إمداد جوى واتصال.

وضماناً لإحراز النصر فإن الدول الاستعمارية تحتفظ دائماً بقواعد عسكرية عديدة فى مواقع استراتيجية بمناطق مختلفة من العالم تعتبرها هذه الدول حقاً تقليدياً لها.

وأيضاً فإنه طبقاً لاستراتيجية الدول الاستعمارية ـ واستقراء لتاريخها ـ فإنها دائماً تسبق حربها المحلية بحرب نفسية لتفتيت قوى الشعب فى الدول المعتدى عليها عن طريق:

● **تحطيم روح الشعب المعنوية** وقد أنشئت إذاعة صوت بريطانيا فى قبرص يديرها البريجادير فيرجون خبير الحرب النفسية.

ومن **أمثلة ما أذاعه الراديو: «أيها المصريون**، لقد اختبأتم فى القرى.. إننا سنضربكم بالقنابل حيث سنجدكم.. تخيلوا نساءكم وأطفالكم وهم يذبحون..».

- **تفتيت وحدة الشعب الوطنية.**

- **العمل على إحداث الشقاق** والفتنة فى صفوف القوات المسلحة.. وبين هذه القوات وبين الشعب.

- **تمهيد الرأى العام العالمى**، وقد لجأت قوى العدوان إلى تزوير نشرات على أنها صادرة من سفارات مصر تتضمن أن القاهرة ستمنع البترول عن أوروبا.

وإذا كانت حرب السويس ـ طبقاً للاستراتيجية الاستعمارية ـ محدودة.. فلقد كانت أهدافها المحدودة تتركز فى ثلاث مجموعات:

- **المجموعة السياسية:**

تمثلها بريطانيا وتهدف إلى استعادة هيبتها فى الأمة العربية والشرق الأوسط عن طريق تحطيم القاهرة قاعدة النضال العربى ومركز الإشعاع فى هذه المنطقة.

- **المجموعة العسكرية:**

وتمثلها فرنسا وتهدف إلى تحطيم ثورة الجزائر والانتقام لكرامتها التى أهدرت على أرض المليون الشهيد وذلك بتحطيم القاهرة سند الجزائر فى ثورتها.

• **المجموعة الانتهازية:**

وتمثلها إسرائيل وقد صور موشى ديان فى كتابه «يوميات معركة سيناء» حقيقة الدور الانتهازى الإسرائيلى فقال:

«إنها قامت بدور» راكب الدراجة الذى يصعد التل مستغلاً السيارة الصاعدة أمامه ممسكاً بها» .. لكن فقد توازنه» !يعنى أنها استغلت تأزم الموقف بين لندن وفرنسا وبين القاهرة فدخلت بالتواطؤ لتسلب أى مكسب وذلك فقد كان من أغراض خطتها العسكرية «قادش» الحصول على مغانم من أسلحة ومعدات.

وكانت تريد نتيجة تحطيم القاهرة .. القضاء على مواقع سيناء وخليج العقبة والاستيلاء على أكبر قدر من المكاسب ومنها الأرض العربية وذلك كله وصولاً لحل قضاياها مع العرب وتحقيق مطامعها .. إلى جانب التقرب من الدول الكبرى!

• **عرض لخطط العدوان:**

لقد تم العدوان بثلاث خطط عسكرية هى: قادش المعدلة وتمثل بداية العدوان الإسرائيلى يوم ٢٩ أكتوبر وكان بعد ضمان حماية الطيران والأسطول الفرنسى الإنجليزى للهجوم ولإسرائيل نفسها .. ثم خطة أومليت ٢ أو ساملكس التى اعتمدت على إسقاط المظليين الإنجليز والفرنسيين يوم ٥ نوفمبر ـ ثم خطة موسكتير المعدلة النهائية «التى جاءت بالأسطول لغزو بحرى كامل ـ يوم ٦ نوفمبر ـ ثم كان الجمع بين الخطتين فى خطة تليسكوب المزدوجة.

ولذلك فان «تليسكوب» تتخذ صفة الأهمية عما سبقها من خطط وهى:

- **الخطة ٧٠٠:**

وهى إنجليزية صرفة تهدف إلى شن عدوان إنجليزى على الإسكندرية ثم القاهرة وقد وضعت يوم ٢٧ يوليو ورفضت يوم ٨ أغسطس.

- **الخطة هامليكار:**

التى تعدلت إلى «موسكتير» وهى خطة فرنسية اتجاهها الإسكندرية ـ القاهرة وقد وضعت فى ١٥ أغسطس للتنفيذ فى ١٥ سبتمبر وألغيت فى ١٤ سبتمبر.

- **الخطة موسكتير المعدلة:**

هى التى دخلت فيها إسرائيل لأول مرة وتحول العدوان إلى بورسعيد ثم الزحف إلى السويس فالقاهرة، وقد وضعت فى ١٤ سبتمبر للتنفيذ فى ٢٦ سبتمبر.

- **الخطة موسكتير المعدلة النهائية:**

وظهر فيها التعاون الوثيق بين قادش المعدلة الإسرائيلية وبين «موسكتير المعدلة» وأجابت كل مطالب إسرائيل من لندن وباريس.

- **الخطة أومليت وأومليت ٢ أو ساملكس:**

وهى خطة عاجلة لاحتلال بورسعيد وتعتبر بديلة سريعة لموسكتير المعدلة النهائية.

- ثم تليسكوب التى جمعت بين الخطتين الأخريين.

- غير هذا. هناك خطة «قادش المعدلة» الإسرائيلية التى بنيت على أساس إدارة القتال فى مراحل ثلاثة:

الأولى: لخلق ذريعة العدوان.

الثانية: للانطلاق إلى مشارف القناة دون التورط فى قتال عنيف..

الثالثة: للتركيز على المواقع المصرية التى تظل صامدة لاقتحامها.

تلك كانت خطط العدوان على الإنسان المصرى فى أكتوبر ـ نوفمبر سنة ١٩٥٦ .. والتى توقفت عمليات القتال خلاله رسميًا يوم ٧ نوفمبر ـ لكنه لم يتوقف بالنسبة للإنسان المصرى ذلك أن جزءاً من أرضه احتل، لذلك استمر طوال ١٢٠ يوماً يناضل شعبيًا ضد المعتدين.. حتى خرجت إنجلترا وفرنسا منسحبتين يوم ٢٢ ديسمبر، ثم خرجت إسرائيل منسحبة من سيناء وغزة يوم ٦ مارس ١٩٥٧.

وخلال هذه الأيام المائة والعشرين.. وبالذات فى بورسعيد جرت ملاحم من النضال أرقت المعتدين وعجلت باندحارهم.

- **قيمة الحرب:**

إن هذه الجولة العربية ـ الإسرائيلية الثانية.. أو حرب السويس ـ كما اشتهرت بهذا الاسم عالمياً ـ كانت لها آثار بعيدة المدى..

بعدها سقط إيدن.. وذهب هارباً إلى جزيرة جاميكا فى ٢٢ نوفمبر وهو يقول «إن العالم لا يتسع لى ولعبد الناصر.. و.. يجب أن يذهب أحدنا..».

وسقط جي موليه.. وتحررت الجزائر.. وهبت القومية العربية.. وثارت اليمن.. واستقل الجنوب اليمنى.. بل وثار العراق.. وشهدت الأمة العربية لأول مرة وحدة كاملة بين قطرين فيه: بين سوريا ومصر.

لقد أحدثت حرب السويس بغير جدال تأثيراتها اللامحدودة فى موازين القوى.. وكانت ـ وبحق ـ فاصلاً بين عصرين.. وقيل عنها الكثير ومع ذلك فقد تكون بعض أسرارها خافية.. حتى الآن.. ومنها ما هو شخصى.. ومثلاً فإن جمال عبد الناصر كان سيسافر إلى لندن من نفسه عقب أزمة تأميم قناة السويس، لكنه عدل عن هذه الفكرة عندما ظهر «إيدن» على شاشة التليفزيون الإنجليزية وفى حركة مسرحية أخرج ورقة سوداء وقال إنها الرئيس المصرى.

ونعتقد أن إيدن لو لم يعرض هذه الورقة، لكان عبد الناصر قد سافر إلى لندن لمواجهة جمعية المنتفعين بقناة السويس فى أغسطس ١٩٥٦.. ولو كان ذلك قد حدث لكانت المشكلة قد انتهت من خلال مواجهة عبد الناصر للذين اجتمعوا فى لندن وقتها. ومواجهته للرأى العام الأوروبى وجهاً لوجه. والمعروف أن عبد الناصر لم يقم بزيارة أية عاصمة أوروبية مثل باريس أو روما أو غيرها.. من مجموعة المعسكر الغربى.

• النجاح والفشل:

إن قياس حجم ودرجة النجاح والفشل فى «حرب السويس» يعتمد على مرجعية أسبابها وهل تحققت أغراضها أم.. لا..؟.

١ ـ **بالنسبة لبريطانيا..** فقد خسرت كل شىء فلم تعد إمبراطورية عظمى كما كانت! وفقدت للأبد قاعدتها فى السويس وكذلك ـ بعد فترة

قصيرة ـ قاعدتها المركزية فى عدن. كما إن مصر اعتبرت هذا العدوان إلغاء للبند الوارد فى اتفاقية الجلاء والذى ينص على التعاون بينها وبين بريطانيا فى حالة نشوب حرب يهددها!.

وأيضاً بدأ الاحتلال البريطانى ينحسر وينسحب من مستعمرات عديدة.. فكانت حرب السويس ضربة قاضية كسرت أنياب الأسد البريطانى وقطعت ذيله وأنهكت قواه حتى مات!.

٢ ـ **بالنسبة لفرنسا**.. تسببت حرب السويس فى إضعافها وكسر عنجهيتها.. فالتهبت الثورة ضدها أكثر وأكثر حتى كان جلاؤها عن الجزائر التى كانوا يعتبرونها قطعة من فرنسا.. كما انسحبت من تونس.. ومن بلاد أخرى فى إفريقيا وغيرها.. وتقلصت من إمبراطورية إلى دولة!

.. كما قضت هذه الحرب نهائيًا على المستقبل السياسى لكل من إيدن وجى موليه.

٣ ـ وبالنسبة لإسرائيل.. فإنها أيضًا لم تكسب فى هذه الحرب، وإن كانت قد أكدت انتهازيتها.. فقد ابتزت فرنسا لتساعدها فى إنشاء مفاعلها النووى.. ثم بعد ذلك ركزت على الولايات المتحدة الأمريكية لتكون حليفتها وربيبتها.. بوسائل وأساليب متعددة. كما بدأت ـ أعنى إسرائيل ـ فى زيادة ترسانتها العسكرية لتستعد لجولة أخرى!.

***

لكن وعلى الناحية المصرية ـ العربية .. فقد ازداد التلاحم العربى ـ العربى.. ولقد شهدت البلاد العربية انتفاضات شعبية مؤيدة لمصر.. وتبلورت نتائج هذا فى أفعال وردود أفعال شهدتها السنوات التالية..

أما فى مصر ـ تحديدًا ـ فلقد ازداد اليقين عمقًا بضرورة بناء مجتمع جديد قوى..

ولكن هذا كله ـ إضافة إلى بروز دول العالم الثالث وبزوغ كتلة عدم الانحياز ـ جعل العصر التالى أشد ضراوة مما كان.

***

على أى حال لقد عرضنا للحرب بوثائق عملياتها ومسبباتها لأن حرب السويس كما قلنا.. لها آثارها المهمة على المستوى العالمى.. وليس فقط المحلى.. وعنها قال جمال عبد الناصر فى ٢ ديسمبر سنة ١٩٥٦:

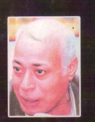
«إن تاريخ النضال الوطنى المصرى القومى العربى ـ سوف يعتبر حرب السويس فاصلاً حقيقيًا بين ما قبلها وما بعدها.. إن ثورة الحرية الحقيقية فى مصر كانت بالذات المائة والخمسين يوماً بين ٢٦ يوليو و٢٣ ديسمبر سنة ١٩٥٦، بين تأميم شركة القناة وانسحاب الدول التى قامت بالعدوان.



محتويات الكتاب



مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب
ص. ب : ٢٣٥ الرقم البريدى : ١١٧٩٤ رمسيس
WWW. egyptianbook. org
E - mail : info @egyptianbook.org



يصدر هذا الكتاب فى اليوبيل الذهبى للعدوان الثلاثى على مصر بمناسبة مرور خمسين عامًا على أحداثه، ولكنه ليس كتابًا موسميًا إنما هو مرجع أساسى لا غنى عنه، ذلك أن حرب السويس - وهذا هو الاسم الذى اشتهر وعرف به العدوان - كانت وبكل المقاييس حدًا فاصلاً بين عصرين. وقد اعتمد الكتاب على الوثائق السياسية والعسكرية المصرية ويوميات القتال، وعلى الوثائق الخاصة بالأطراف الثلاثة التى شاركت فى العدوان وهى: إنجلترا وفرنسا وإسرائيل. وكذلك على مذكرات عدد من قادة الدول ودراسات المؤرخين والباحثين.

ويكشف الكتاب تفصيلاً أسرار التواطؤ الثلاثى وأهدافه بين إنجلترا.. الإمبراطورية التى لم تكن تغرب عنها الشمس.. وفرنسا الإمبراطورية التى كانت مستعمراتها تمتد عبر القارات.. وبين دولة صغيرة مشكوك فى شرعيتها هى إسرائيل التى قال أبرز قادتها العسكريين « موشيه ديان » إن اشتراكها كان أشبه براكب دراجة تعلق بسيارة كبيرة تصعد سفح الجبل فانطلق بسرعة لكنه فقد توازنه !.

ويتضمن الكتاب تحليلا موضوعياً لما جرى ويهتم بما حدث فى ساحة الميدان ليس عسكرياً فقط لكن أيضاً إنسانياً وعلى مستوى التفاصيل الصغيرة الدالة.. كما يتحدث فى فصوله الأولى عن الهدف المباشر للحرب وهو تأميم قناة السويس، وفضلا عن الخلفية التاريخية والأهمية الإستراتيجية فإنه يتوقف عند المشهد التاريخى للتأميم من خلال الوثائق والحوار مع بعض الرجال الذين شاركوا فى صنع المجد ومواقف الأطراف المختلفة..

الغلاف للفنان : أحمد اللباد

السعر ٦ جنيهات